مجلة الصحافة

العدد (33) | السنة التاسعة | ربيع 2024

فلسطين.. صحفيون في زمن الإبادة

معهد الجزيرة للإعلام

إصدار جديد لمعهد
الجزيرة للإعلام

محتويات العدد

4 «ما زلنا على قيد التغطية»
هشام زقوت

8 كيف أصبحت «خبرا» في سجون الاحتلال؟
ضياء الكحلوت

12 في تغطية الحرب على غزة.. صحفية وأُمًّا ونازحة
مرح الوادية

16 «إننا نطرق جدار الخزان»
سمية أبو عيطة

20 الصحفي الغزي وصراع «القلب والعقل»
مرام حميد

24 أنس الشريف.. «أنا صاحب قضية قبل أن أكون صحفيا»
محمد أحداد

30 «الحرب الهجينة».. المعلومات سلاحا في يد الاحتلال
بكر عبد الحق

36 الاستشراق والإمبريالية وجذور التحيّز في التغطية الغربية لفلسطين
جوزيف ضاهر

44 عندما نَحَرت إسرائيل الحرية الصحفية على أعتاب غزة
وفاء أبو شقرا

50 بعد مئة عام من الحرب.. عن محنة الصحفيات السودانيات
أميرة صالح

54 حرية الصحافة في مواجهة مع الذكاء الاصطناعي
عبد اللطيف الحاج محمد

60 غوغل رئيسا للتحرير: هل نكتب للجمهور أم لمحركات البحث؟
عصام واعيس

66 كيف تؤلف كتابا في الصحافة؟
نوا زافاليتا

72 التنظيم الذاتي.. أرضية لـ «عقد اجتماعي» جديد مع جمهور الصحافة
مجلة الصحافة

كتّاب المجلة

هشام زقوت
مراسل قناة الجزيرة في غزة.

ضياء الكحلوت
مراسل صحيفة العربي الجديد في غزة.

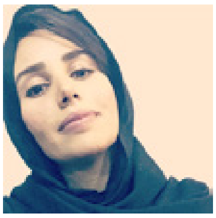

مرح الوادية
صحفية في القطاع الرقمي بشبكة الجزيرة.

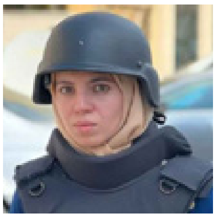

سمية أبو عيطة
صحفية فلسطينية من قطاع غزة.

مرام حميد
صحفية ومراسلة موقع الجزيرة باللغة الإنجليزية في غزة.

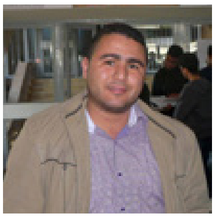

محمد أحداد
صحفي بمعهد الجزيرة للإعلام. حاصل على ماجستير في العلوم السياسية ومؤلف كتاب «يد في الماء.. يد في النار».

بكر عبد الحق
صحفي فلسطيني، مؤسس ومدير المرصد الفلسطيني «تحقق»، باحث وأكاديمي في مجال التحقق.

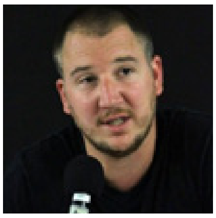

جوزيف ظاهر
باحث أكاديمي سويسري من أصول سورية.

وفاء أبو شقرا
أستاذة في كليّة الإعلام في الجامعة اللبنانيّة ورئيسة مركز الأبحاث فيها. حائزة على شهادة دكتوراه في «سوسيولوجيا الإعلام والاتصال» من جامعة «السوربون» الفرنسيّة.

أميرة صالح
صحفية سودانية مهتمة بالقضايا الإنسانية وقضايا المرأة. عملت بعدد من الصحف المحلية والعربية.

عبداللطيف حاج محمد
صحفي استقصائي سوري مقيم في السويد، عمل في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مستكشفاً آثار أزمة اللاجئين والفساد المالي والسياسي والصراعات.

عصام واعيس
صحفي وكاتب رأي من المغرب، عمل محررا أولا ورئيس تحرير لعدد من المنصات الإعلامية وأشرف على إستراتيجيات إعداد المحتوى داخلها.

نوا زافاليتا
صحفي وكاتب مكسيكي.

شهادة الصحفي والإنسان

ألغت حرب الإبادة الجماعية في فلسطين الحدود بين الصحفي الباحث عن الحقيقة والإنسان الباحث عن رغيف خبز وبيت آمن يأوي إليه هو وعائلته. بين هذين الحدّين تتراوح شهادات الصحفيين الفلسطينيين في غزة، الذين يواصلون توثيق جرائم الحرب التي يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي على مدى الأشهر الماضية.

الأم، النازحة، العائدة من إسطنبول في يوم السابع من أكتوبر. المعذب في سجون الاحتلال، الذي فقد عائلته تحت الأنقاض، الواقف في الطوابير بحثا عن الغذاء والدواء، الراغب في إيصال رواية الإبادة إلى العالم، والمكابد لإيجاد إنترنت وكهرباء لتبقى «التغطية مستمرة».. حمل الصحفي الفلسطيني في جوفه هذه التناقضات لتغطية حرب أجمعت الشهادات التي نوثقها في هذا الملف على أنها أوقعت مدىً من القتل والدمار كان يصعُب حتّى مجرد تخيّله.

وفي عالم ما يزال يتعامل بازدواجية معايير مع البشر، جُرّدَ الصحفي الفلسطيني المرابط في غزة من حقه الأساسي في الاعتراف وبالحماية الصحفية، وانتعشت في كثير من الأحيان التصنيفات المنسجمة مع الرواية الإسرائيلية واتهام البعض منهم بالانتماء إلى «المقاومة». أما الحصيلة، فأكثر من 141 صحفيا استشهدوا في الميدان إلى جانب عشرات من أفراد من عائلاتهم.

لم تعد تجدي في هذا السياق لا دورات السلامة المهنية ولا المعايير الأخلاقية في تغطية الحروب، بعد أن صهرت الإبادة الإسرائيلية الفروق بين الصحفي والإنسان الفلسطيني لاسيما وأن التجربة أظهرت بعد أكثر من ست شهور من الحرب أن الاحتلال تبنى إستراتيجية ممنهجة لقتل الصحفيين وعائلاتهم لإسكات صوت الحقيقة.

فريق المجلة

مجلة الصحافة

العدد (33) ا السنة التاسعة ا ربيع 2024
مجلة فصلية تصدر عن
معهد الجزيرة للإعلام
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
إيمان العامري

رئيس التحرير
منتصر مرعي

هيئة التحرير
محمد أحداد
محمد خمايسة
محمد زيدان

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
/http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

إكس (تويتر سابقا):
@AJR_Arabic

فيسبوك:
www.facebook.com/
aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

«ما زلنا على قيد التغطية»

هشام زقوت

أصبحت فكرة استهداف الصحفيين من طرف الاحتلال متجاوزة، لينتقل إلى مرحلة قتل عائلاتهم وتخويفها. هشام زقوت، مراسل الجزيرة بغزة، يحكي عن تجربته في تغطية حرب الإبادة الجماعية والبحث عن التوازن الصعب بين حق العائلة وواجب المهنة.

لم يكن أحد يتوقع أن حربا على غزة يمكن أن تستمر كل هذه المدة من الزمن.. مرت شهور، تغيرت خلالها الفصول، ولم يستطع العالم وقف حرب إبادة يمارسها احتلال بحق شعب عربي محاصر منذ سبعة عشر عاما ولا يزال.

ورغم أننا في غزة، وبوصفنا صحفيين أيضا، عشنا حروبا عدة، حتى بتنا نعتقد أن لدينا مناعة وقدرة على فهم هذه الحروب والتعامل مع ظروفها القاسية والكارثية، فإن الاحتلال يفاجئنا في كل مرة بحرب ذات طابع مختلف، والسمة الأبرز لكل الحروب هي القتل والتدمير.

ولعل الاختلاف الأبرز في هذه الحرب هو تحول الصحفي من ناقل للحدث، وشاهد عليه، إلى الحدث نفسه؛ فقد مارس الاحتلال بحقه كل أساليب القمع والتهديد والقتل.

ولم تكن عائلات الصحفيين بعيدة عن استهداف الاحتلال؛ فقد عاقبهم الاحتلال بقتل عائلاتهم في محاولة لتخويفهم، بعد أن بات الصحفي الفلسطيني هو صوت غزة إلى العالم، وهو الوحيد الذي ينقل حقيقة ما يجري في غزة من قتل للمدنيين الذين يحاول الاحتلال إشاعة أنهم غير ذلك.

ومع منع الاحتلال إدخال الصحفيين الأجانب والعرب إلى غزة، لم يعد هناك سوى صوت الصحفي الفلسطيني الذي يصدح محطما رواية احتلال سعى لترويجها بكل الوسائل والطرق في العالم، فكانت له رواية الصحفي الفلسطيني بالمرصاد.. فماذا يفعل هذا الاحتلال لمنع هذه الرواية من الانتشار؟ بكل بساطة مارس بحق الصحفي الفلسطيني ما يمارسه دائما من قتل وتشريد وهدم للمنازل واستهداف للمقرات، وتهديد مباشر وغير مباشر وقائمة طويلة من الانتهاكات، تصدينا لها بالصمود والإصرار على استمرار التغطية التي كان أبرز ملامحها البث المباشر، الذي لا يخضع لمونتاج أو تغيير، ليرى العالم حقيقة ما يجري في غزة على الهواء مباشرة..

وقد كان لقناة الجزيرة الدور الأبرز في تغطية الحرب.. تنقلنا من مكان إلى آخر، عبر سيارة بث، تنقل للعالم حقيقة ما يجري في غزة، من نسف للمنازل على رؤوس ساكنيها، واستهداف للمساجد والكنائس، وقصف للمستشفيات وسيارات الإسعاف.

ويوما بعد آخر بتنا ندفع ثمن هذه التغطية، من خلال الاستهداف المباشر لنا بوصفنا صحفيين، ولعائلاتنا، وتهديدنا من قبل الاحتلال، والمطالبة صراحة: انصرفوا من هنا.

لا يوجد مكان في العالم، تُقطع عنه الكهرباء شهورا ويُمنع عنه الوقود والغذاء والدواء، ويستمر البث المباشر فيه بلا انقطاع، سوى غزة.. لقد كان نوعا من التحدي لرواية الاحتلال دفع فيها الصحفيون الثمن غاليا.

سوى الحقيقة

ومع تلاحق الأحداث، فإن كثيرا من تفاصيل الحياة غابت عن

«يوما بعد آخر بتنا ندفع ثمن هذه التغطية، من خلال الاستهداف المباشر لنا بوصفنا صحفيين، ولعائلاتنا، وتهديدنا من قبل الاحتلال، والمطالبة صراحة: ابتعدوا عن هنا».

المشهد، ومنها تفاصيل الحياة اليومية القاسية التي يعيشها الصحفي الفلسطيني في غزة، ولا سيما أنه غير قادر على مغادرة الميدان رغم أنه ثمة مطالب حياتية ضرورية له ولعائلته يجب توفيرها. سأحدثكم عن تجربتي التي تخطت شهرها السادس، وكل يوم منها يعد بالثواني، وفيها كثير من الأحداث، قليل منها ما ترونه على الشاشة وكثير خلفها، نصارع من أجل البقاء على قيد الحياة وقيد التغطية كذلك.

لا يوجد مكان في العالم، تُقطع عنه الكهرباء شهورا ويُمنع عنه الوقود والغذاء والدواء، ويستمر البث المباشر فيه بلا انقطاع، سوى غزة. لقد كان نوعا من التحدي لرواية الاحتلال دفع فيها الصحفيون الثمن غاليا.

فرضت علينا الحرب خوض معارك في الحياة، أولها بكل تأكيد معركة البحث عن مكان آمن، وهل من مكان آمن في غزة؟ الجميع يدرك الإجابة، لكن الصحفي الذي يعُدّه سكان غزة يعرف أكثر ولديه من المعلومات ما يظنون أنه مؤهل لإيجاد ذلك المكان الآمن، ظل يعاني من أجل إيجاد مكان يأوي إليه مثل عشرات الآلاف من المدنيين. تفرقت عائلاتنا، ونزحت إلى أماكن ظننا أنها آمنة، لكن المفاجأة أن كثيرا منها تعرضت منازل مجاورة لها للقصف والتدمير، فأصيب من أصيب واستشهد من استشهد.

وما عائلات زملائنا وائل الدحدوح ومؤمن الشرافي ومحمد القمصان وخالد لبد إلا شهود على حجم الجرائم بحق الصحفيين وعائلاتهم.

بكل أسف فشلنا في أول معركة خضناها خلف خطوط التغطية، ولعلها كانت وما زالت أهم المعارك من خلال تأمين العائلة والفريق في مكان آمن، رغم أن البحث عن الأمان في غزة هو مهمة مستحيلة، لكننا مستمرون في المحاولة ما دامت الحرب مستمرة.

من مكان إلى آخر، وكلما تنقلنا لنقل الأحداث، كنا ننتقل في رحلة نزوح جديدة في كل مرة.. خلال الحروب السابقة كانت تتحمل زوجاتنا مهمة تأمين العائلة وحمايتها وتوفير ما يلزم من احتياجات، لكن خلال هذه الحرب غير المسبوقة كان كل شيء مختلفا.

فرحلة النزوح صاحبتني وزملائي، حتى إننا كنا نتنقل بسيارة البث في كل مرة من مكان إلى آخر، ونصطحب معنا في كل مرة عائلاتنا، وخيمنا، وبعض المؤن التي استطعنا توفيرها بشق الأنفس، وبعض الاحتياجات التي استلفناها من الأصدقاء.

كنا نظن أننا سنعود إلى منازلنا خلال وقت قريب بعد انتهاء الحرب، لكن لا الحرب انتهت ولا نحن عدنا، وبتنا مضطرين إلى توفير كثير من احتياجات المنزل كالغذاء والماء، كي تستمر الحياة في تلك الخيام أو المنازل المؤقتة التي لجأنا إليها.

معركة أخرى تحدث يوميا خلف خطوط التغطية وهي توفير مقومات الحياة من ماء وطعام؛ ففي هذه الحرب بات الحصول على أي من المواد الأساسية مهمة شاقة.. في كل مرحلة كنا نفقد مخزون مواد أساسية؛ تارة الدقيق وتارة الملح وأخرى السكر، وقائمة طويلة، وبعضها يحتاج إلى الوقوف في طوابير تمتد فترة الانتظار فيها لساعات.

للحصول على بعض الأرغفة من الخبز أو جالون ماء، أو بعض المواد الأساسية بأسعار معقولة، أو حتى الحصول على المال من البنك يجب ترك التغطية والوقوف في طابور طويل لساعات.

خلال رحلة النزوح، التي ما تزال مستمرة، كانت رفح إحدى المحطات المهمة؛ ففيها باتت الخيمة هي غرفة النوم ومقر العمل وغرفة الجلوس والمطبخ.. وسأفشي لكم سرا؛ لم نستطع توفير دورة مياه، وكنا نضطر إلى التوجه للمسجد أو المستشفى المجاورين لنا لقضاء الحاجة، أو الاستحمام بماء بارد إن توفر بكل تأكيد، حتى لو كانت المياه أبرد من الجو في الخارج، فلا خيارات متاحة.

أما إذا مرضت، فتلك معركة أخرى؛ فالمستشفيات تضج بالجرحى، والمريض ليس أولوية في ظروف كهذه، والبحث عن الأدوية هي رحلة عذاب أخرى، بينما توفير الأدوية يحتاج بكل تأكيد إلى الوقوف في طابور، وربما يصلك دورك ويبلغك الصيدلي بكل أسف أن هذا الدواء غير متوفر.

حجم الجرائم المروعة بحق القطاع وسكانه، ونكشف زيف رواية احتلال يقتل ويدمر ويقصف ويهدد ويسعى لإقناع العالم بأنه على صواب.. لكن الحقيقة جلية ينقلها صحفيون فلسطينيون باحترافية وثبات، في ظل استمرار منع الاحتلال دخول صحفيين أجانب، حتى لا يروا ما يروعهم ويخطف أنفاسهم، ويسرق النوم من عيونهم، من هول ما سيرونه من جرائم.

خلال رحلة النزوح، التي ما تزال مستمرة، كانت رفح إحدى المحطات المهمة؛ ففيها باتت الخيمة هي غرفة النوم ومقر العمل وغرفة الجلوس والمطبخ. وسأفشي لكم سرا؛ لم نستطع توفير دورة مياه، وكنا نضطر إلى التوجه للمسجد أو المستشفى المجاورين لنا لقضاء الحاجة.

أما وقد آن موعد العودة إلى الشاشة مرة أخرى، فتنتهي كل هذه المعارك، وتظل دائما معركة واحدة ووحيدة هي أن تستمر التغطية وصورة غزة على الهواء مباشرة، لننقل

«غابت الكثير من التفاصيل القاسية التي يعيشها الصحفي الفلسطيني في غزة عن المشهد، مثل معركة البحث عن مكان آمن وإيواء العائلة بينما لا نغادر الميدان».

كيف أصبحت «خبرا» في سجون الاحتلال؟

ضياء الكحلوت

عادة ما يحذر الصحفيون الذين يغطون الحروب والصراعات من أن يصبحوا هم «الخبر»، لكن في فلسطين انهارت كل إجراءات السلامة. ليجد الصحفي ضياء كحلوت نفسه معتقلا في سجون الاحتلال يواجه التعذيب بتهمة واضحة: ممارسة الصحافة.

عندما بدأت حرب الإبادة والتدمير والتجويع في قطاع غزة ما بعد السابع من أكتوبر 2023، لم يكن أحد يتوقع أن نصل إلى هذا الكم من الجرائم الإسرائيلية والشهداء والدمار والتشريد والوجع، وفقدان أدوات العمل الصحفي واستهداف الصحفيين بشكل متعمد وعلني ومن دون أدنى مراجعة أو محاسبة للمحتل.

بصفتي صحفيا بدأت العمل سنة 2004 واعتدت تغطية الحروب والاعتداءات الإسرائيلية على قطاع غزة، هيأت لنفسي الظروف في منزلي لأتمكن من العمل والتغطية بشكل أقل صعوبة، لكني فقدت كل ما جهزته في اليوم الثاني من حرب الإبادة عندما غادرت منزلي مجبرا.

في بيتي في حيّ الكرامة إلى الشمال الغربي من مدينة غزة جهزت نظاما كهربائيا يعمل بالطاقة الشمسية وخطَّيْ إنترنت فائقَي السرعة من مصدرين مختلَفين ومكتبا وأدوات أخرى تساعدني على إكمال عملي بالشكل المُرضي.. بيد أن كل ذلك أصبح بلا قيمة عندما أغار الطيران الحربي الإسرائيلي بصاروخ واحد على أرض زراعية بجوار منزلي ووصلتني مع الجيران عشرات الاتصالات الهاتفية والتهديدات من جيش الاحتلال الإسرائيلي لإخلاء المنطقة بالكامل.

أخليت منزلي متجها نحو منزل والدي وأشقائي في مشروع بيت لاهيا شمالي القطاع، وبدأت العمل من هناك على التغطية اليومية واللحظية للأحداث واستلام مواد الصحفيين المتعاونين ونقلها إلى أقسام موقع وصحيفة "العربي الجديد" والترتيب مع الزملاء وتقاسم المهام معهم.. لكن في اليوم الخامس من الحرب تغير كل شيء مرة أخرى؛ انقطعت الاتصالات الهاتفية تماما ولم أتمكن من معرفة ما جرى مع الزملاء المتعاونين، ولا التواصل معهم، بل أصبح الحصول على

«مع الأيام أصبح شحن الهاتف ضربا من المستحيل نتيجة شدة القصف والاستهداف المباشر والخوف من التنقل في الشوارع نهارا نتيجة الطائرات المسيرة التي تستهدف كل المتحركين» (تصوير: إبراهيم أبو مصطفى - رويترز).

الإنترنت ضربا من الخيال ولم يعد هناك أي مصدر كهربائي في المنزل لشحن الهاتف والحاسوب، وغدت التغطية مستحيلة في هذه الظروف.

هكذا كنت أعمل بجد لنقل الصورة الحقيقية لما يجري، لكنني فجأة ومن دون مقدمات كثيرة أصبحت أنا الخبر بعد أن كنت ناقله.

فهمت حينئذ أن الاحتلال يريد منا الاستسلام للأمر الواقع، وأن يستمر في قتل الفلسطينيين وتشريدهم وقصف المنازل على مَن فيها وتغييب الشهود.. لكنني لم أستسلم لهذا الواقع، ومن هنا بدأت -وبدأ كثير من الصحفيين- رحلة البحث عن خيارات وأدوات ممكنة لتجاوز العراقيل التي صنعتها إسرائيل أمام الصحفيين في غزة.

بعد يومين من البحث وجدت شخصا يبيع شرائح إنترنت إسرائيلية بأضعاف سعرها الحقيقي، وبجودة أقل من المتوقع؛ فاشتريت واحدة وبدأت أبلغ الزملاء الصحفيين بطريقة الشراء والتشغيل وضمان التقاط أفضل إشارة.. وهكذا تغلبنا على المشكلة الأولى، واتخذت قرارا بالعمل من الهاتف لسهولة شحنه وترك الحاسوب لصعوبة نقله من مكان إلى آخر.. كنت في تلك اللحظة أشغل أطفالي وأبناء إخوتي لنقل هاتفي والشاحن البديل (باور بنك) من مكان إلى آخر في الشارع لشحنهما عبر أنظمة طاقة صغيرة لديهم، وقد تعاون الجميع معي وساعدوني من أجل أن تظل التغطية مستمرة، لكن مع الأيام أصبح شحن الهاتف أيضا ضربا من المستحيل نتيجة شدة القصف والاستهداف المباشر والخوف من التنقل في الشوارع نهارا نتيجة الطائرات المسيرة التي تستهدف كل المتحركين، والتي كنا نسميها "كواد كابتر".

استفدت من شريحة الإنترنت الإسرائيلية أكثر من غيري لقرب منزل والدي نسبيا من الحدود مع فلسطين المحتلة، حيث عشرات الهوائيات لشركات الاتصالات والإنترنت.. ثم استرجعت القدرة على التغطية والمتابعة، لكن مشكلة التواصل مع الزملاء المتعاونين ومصادر الأخبار لا تزال "متفاقمة"، وتزداد صعوبة يوما بعد يوم.

> **بدأ جنود الاحتلال التعامل بوحشية مع الشبان المعتقلين، وحتى الصغار وكبار السن، وبينما كنت أقول لأحدهم إنني صحفي ومدني ولا علاقة لي ولا لكل المعتقلين بالفصائل الفلسطينية، كسر بطاقتي الصحفية بيديه!**

لم تكن التغطية في هذه الفترة سهلة، ولا مكتملة، وأقر بأن أحدا في غزة لم يستطع إيصال الصورة كاملة؛ نتيجة القوة المفرطة التي استُخدِمت بحق المدنيين والصحفيين وخطورة التنقل وغياب المعلومات في كثير من الأحيان وسرعة الأحداث وتلاحقها غير المعتاد.

هكذا كنت أعمل بجد لنقل الصورة الحقيقية لما يجري، لكنني فجأة ومن دون مقدمات كثيرة أصبحت أنا الخبر بعد أن كنت ناقله.. استيقظنا الساعة الخامسة فجر يوم الخميس 7 ديسمبر/ كانون الأول 2023 على أصوات تجريف ودبابات إسرائيلية بالقرب من منزل والدي، وبعد ذلك بساعتين بدأنا نسمع أصوات الجنود الإسرائيليين يطالبوننا والجيران بالخروج من المنزل وتسليم أنفسنا، في مشهد لم نتخيله من قبل.

بدأ جنود الاحتلال التعامل بوحشية مع الشبان المعتقلين، وحتى الصغار وكبار السن، وبينما كنت أقول لأحدهم إنني صحفي ومدني ولا علاقة لي ولا لكل المعتقلين بالفصائل الفلسطينية، كسر بطاقتي الصحفية بيديه! فهمت حينئذ أن الأمر لن يكون سهلا وأن أمامنا رحلة صعبة وقاسية قد لا تنتهي بسهولة، وقد أعاقَب على عملي الصحفي أكثر من غيري من المعتقلين.

مساء السابع من ديسمبر/ كانون الأول أجري أول تحقيق معي في قاعدة زيكيم العسكرية شمال غرب قطاع غزة بعد ساعات من الإهانة والإذلال وإجبارنا على خلع ملابسنا باستثناء الداخلية منها.. في البدء تركز التحقيق على علاقتي بالفصائل، وعندما تأكد المحقق أنني صحفي شرع في توجيه الإساءات والشتائم لي، وسألني عن عملي وعن تقرير أنجزته سنة

«لم تكن التغطية سهلة، وأقر بأن أحدا في غزة لم يستطع إيصال الصورة كاملة؛ نتيجة القوة المفرطة التي استُخدِمت بحق المدنيين والصحفيين وسرعة الأحداث وتلاحقها غير المعتاد».

2018 عن وحدة "سييرت متكال" التي تصدت المقاومة لها شرقي خان يونس وأوقعتها بين قتيل وجريح، وهو تقرير منشور في "العربي الجديد".. كان الضابط المحقق مستاءً من بعض المعلومات في التحقيق لتغيير طريقة تعامله معي بالإمعان في الإساءة والضرب وأنا مقيد اليدين إلى الخلف وأرتدي عصابة على العينين.. وقبل نقلي إلى موقع عسكري آخر وضع لاصقا على فمي لأني كنت أجادل الجنود وأتحدث إليهم عن خطأ اعتقالنا نحن المدنيين وأنني صحفي لا أنتمي لأي من الفصائل.

أجري أول تحقيق معي في قاعدة زيكيم العسكرية شمال غرب قطاع غزة بعد ساعات من الإهانة والإذلال وإجبارنا على خلع ملابسنا باستثناء الداخلية منها. في البدء تركز التحقيق على علاقتي بالفصائل، وعندما تأكد المحقق أنني صحفي شرع في توجيه الإساءات والشتائم لي.

وإلى موقع "سدي تيمان" جرى نقلنا، وفي اليوم التاسع من الاعتقال الذي استمر 33 يوما جرى التحقيق للمرة الثانية معي عن عملي في العربي الجديد، وعن عمل سابق في موقع الجزيرة نت وجريدة السفير اللبنانية.. وقتئذ أيقنت أنّني أعاقَب لأنني صحفي، وأن مهنتي التي كنت أتوقع أن تحميني وتخفف عني ما أنا فيه لم تحمني في ظل أسوأ نظام عنصري إسرائيلي يتعامل مع الفلسطيني بوصفه إرهابيا.

في اليوم الخامس والعشرين للاعتقال تعرضت لـ "الشّبْح"(طريقة للتعذيب قائمة على التعليق) والتعذيب من قبل محققين من جهاز الشاباك الإسرائيلي، ووجهوا لي اتهامات بالإساءة لإسرائيل ومعاداتها عبر وسائل الإعلام، وسألني أحدهم لماذا أجادلهم ولا أرد على السؤال بجواب مختصر، وسألني عن قيادات في الفصائل كنت أكثِر الاتصال بها بوصفها مصادر في تقاريري الصحفية.

بعد ذلك، جرى اقتيادنا إلى سجن "عنبر" مليء بالأسرى؛ إذ تعرضنا هناك للقمع من طرف وحدة إسرائيلية خاصة بقمع الأسرى، وقد شاهدنا بالسجن مستوطنين كانوا يرتدون قبعات "متدينين".

خلال أيام السجن الـ 33 كنا جميعا في حالة صعبة، لا دواء ولا طعام ولا نوم طبيعيا، وكنا نجثو طوال اليوم على الركبتين.. كانت حياتنا عبارة عن جحيم، ولا أحد يعلم ما الذي يجري خارج السجن.. كنا مغيبين عن كل شيء، وحتى عندما كنا نرغب في معرفة الساعة كان الجنود الذين يحيطون بنا من كل جانب يردون: ليس لدينا ساعة.. أما ساعات النوم الأربع فحُرمنا من بعضها فقط لأن الضابِط أو الجندي الإسرائيلي شاهد أسيرين يتحدثان معا.

كان جنود الاحتلال والمحققون في كل خطوة تحقيق معي ينكرون معرفتهم بعملي الصحفي، وأنا موقن أنهم يكذبون علي؛ لأنه عقب الإفراج عني في 9 يناير/كانون الثاني 2024 علمت من ابن أخي الذين حققوا معه -وكان أول شاب يُحَقق معه في موقع "زيكيم" العسكري- أن المحقق سأله: في أي مؤسسة صحفية يعمل عمك ضياء اليوم؟ وعندما قال له في "العربي الجديد"، قال مدير المكتب: نعرف ذلك!

كانت تجربة سيئة وصعبة، وما زال زملاء صحفيون من غزة والضفة معتقلين ومغيبين عنا في سجون الاحتلال الإسرائيلي، لا نعلم ظروف اعتقالهم ولا أي شيء عنهم في ظل منع المحامين من زيارتهم، والمطلوب اليوم قبل الغد هو حماية الصحفي الفلسطيني الذي يواجه أسوأ نظام قتل وإبادة.

في تغطية الحرب على غزة.. صحفية وأُمًّا ونازحة

مرح الوادية

كيف يمكن أن تكوني أما وصحفية ونازحة وزوجة لصحفي في نفس الوقت؟ ما الذي يهم أكثر: توفير الغذاء للولد الجائع أم توفير تغطية مهنية عن حرب الإبادة الجماعية؟ الصحفية مرح الوادية تروي قصتها مع الطفل، النزوح، الهواجس النفسية، والصراع المستمر لإيجاد مكان آمن في قطاع غير آمن.

لا أعرف من أين أبدأ. هل انطلاقا من كوني صحفية تغطي الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة أم بصفتي نازحة أم زوجة لصحفي أيضا؟

عرفت سابقا أن للعمل في الصحافة ثمنا باهظا، ندفعه نحن الصحفيين والصحفيات من صحتنا النفسية والجسدية، ولا سيما في غزة التي تشهد نموذجا استثنائيا في التغطية؛ إذ بلغت حصيلة الشهداء من الصحفيين 141 منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، بحسب المكتب الإعلامي الحكومي.

منذ اللحظات الأولى لبدء عملية «طوفان الأقصى»، أدركنا جيدا أن «القيامة» ستقوم على غزة.. في العادة يجهز الفلسطينيون حقيبة يسمونها «حقيبة الحرب» تضم أوراقهم الثبوتية وبعض المال والمدخرات، فيما لو أجبروا على إخلاء المنزل بسرعة، لكن قصتي أنا على سبيل المثال لا الحصر كانت مختلفة.

أنا وزوجي أنس أبو دية صحفيان في القطاع الرقمي بشبكة الجزيرة، نسكن بمنطقة «الأمن العام» أو شارع المخابرات في الشمال الغربي لمدينة غزة، أجبرنا على إخلاء منزلنا عند فجر اليوم الثالث من الحرب، تحت الغارات الجنونية التي لم نعهدها رغم مأساوية الأوضاع في الحروب السابقة. ماذا عن «حقيبة الحرب» بالنسبة للصحفيين؟ بالتأكيد سوف تكون معدات العمل؛ الكاميرات وأجهزة الحواسيب وبعض معدات التصوير، فهي كل رصيدنا من منزلنا الذي تعرض للتدمير لاحقا.. نعُدّها بمنزلة أبناء لنا.. فضّلناها على حصتنا من الملابس والمستلزمات، وعلى كثير من الأشياء الثمينة التي ربما أصبحت ذكرى لنا الآن.

نــزح فــي داخـــل غــزة مثـــل المدنييـــن الفلســـطينيين فـــي أماكـن مختلفـة في اليـوم بسـبب القصـف.. نحمـل المعـدّات ونركض بهـا.. نخـاف أن تبقى في السـيارة، نضعهـا بيننـا حتـى في الأماكـن الضيقـة.. وهنـا يجـب أن أعتـرف أن تحقيـق التـوازن بيـن السلامـة الشــخصية وتوفيــر تغطيــة مسـتمرة كان في غايـة الصعوبـة، حتـى وصـل بنـا الأمـر إلـى الوصول إلـى جنوبـي القطـاع.. أمَّنّـا علـى عُمَـر ثـم انطلقنـا..

في العادة يجهز الفلسـطينيون حقيبــة يســمونها «حقيبــة الحــرب» تضم أوراقهـم الثبوتية وبعـض المال والمدخـرات، فيما لــو أجبــروا على إخلاء المنــزل بســرعة، لكـن قصتـي أنـا على ســبيل المثـال لا الحصـر كانـت مختلفـة.

«في طبيعة عملي، أنا شغوفة بالبحث عن القصص الإنسانية، أهتم لسماع أدق التفاصيل المتعلقة بالفقد خاصة».

لوهلــة تشــعر أن وجــود طفــل بيــن زوجيــن صحفييــن «يكســر الظهــر».. نعيــش في توتــر دائــم، يتضاعــف الخـــوف كلمــا خرجنــا للتغطيــة؛ ليــس على أنفســنا بــل على أن يصيبــه قصــف بــأذى أو يســتهدف عوائلنــا وأحبابنــا الذيــن يفكــرون بنــا كذلــك.. ولعل أكثـر مـا ضاعـف الأمـر هـذه المـرة شراسـةُ إسـرائيل في اسـتهداف الصحفييــن وعائلاتهــم.

لا حصانـــة لأحـــد منـــا أمـــام تعطشــهم لدمائنــا.. مـرّت علينـا أيــام شــعرت فيهــا أننـــي لـــو لـــم أمـــت بالقصـــف فســأموت بسـكتة قلبيـة بسـبب الأصـوات التـــي تضـــرب أعمـــاق قلوبنـــا مـــن هولهـــا.. أحـــاول تجـــاوز كل مشـــاعري وكتمهـــا في داخلـــي لأطمئِـــن مـــن حولـــي.. يظهـــر الخـــوف علـــي في كثيـــر مـــن الأحيـــان، وبـــدلا مـــن المواســـاة لبعـــض «الأقويـــاء» مـــن حولـــي كانـــت تقتلنـــي جملـــة «صحفيـــة وبتخـــافي؟»، ألا يحـــق للصحفـــي أن يخـــاف يـــا عالـــم؟

في طبيعــة عملــي، أنــا شــغوفة بالبحـــث عـــن القصـــص الإنســانية، أهتـــم لســـماع أدق التفاصيـــل المتعلقـــة بالفقـــد خاصـــة.

وبالعــودة إلــى طبيعــة التغطيــة التــي لــن أمــل مــن وصفهــا بأنهــا «اســتثنائية»، منــذ الســابع مــن أكتوبــر أغلقــت إســرائيل المعابــر مــع قطــاع غــزة إغلاقــا تامــا، فمنعــت دخـــول الغـــذاء والـــدواء والســـولار وقصفـــت محطـــات الكهربـــاء وأخـــذت تقطـــع الإرســـال والإنترنـــت لفتـــرات بعضهـــا امتـــد إلـــى أكثـــر مـــن أســـبوع..

لوهلــة تشــعر أن وجــود طفــل بيــن زوجيــن صحفييــن «يكســر الظهــر». نعيــش في توتــر دائــم، يتضاعــف الخــوف كلمــا خرجنــا للتغطيــة؛ ليــس على أنفســنا بــل على أن يصيبــه قصــف بــأذى أو يســتهدف عوائلنــا وأحبابنــا الذيــن يفكــرون بنــا كذلــك.

«لم تكن الظروف مناسبة للعمل، لكنّه عملنا الذي نفخر به ويراه الناس مساحة ضرورية لنروي قصصهم! نحن الذين نرفض أن يكون الضحايا مجرّد «أرقام» في عدّاد الموت الذي لا يتوقف».

لم تكن المواصلات متوفرة لانقطاع السولار والبنزين.. لم يكن لدينا معدات سلامة مهنية؛ لا درع ولا خوذة ولا حتى شنطة إسعافات صغيرة.. كنا نسير أنا وأنس لمسافات طويلة تحت تهديد القصف نحمل معدات التصوير فوق ظهورنا، ويحالفنا الحظ عندما نجد عربة تجرها دواب لتوصلنا إلى موقع التصوير.. لم يكن يهمّنا التعب بقدر ما يهمّنا أن نصل رغم انعدام فرص الأمان.

لم تكن الظروف مناسبة للعمل، لكنّه عملنا الذي نفخر به ويراه الناس مساحة ضرورية لنروي قصصهم! نحن الذين نرفض أن يكون الضحايا مجرّد «أرقام» في عدّاد الموت الذي لا يتوقف أمام الحرب التي تفرض علينا أثقل ما يمكن للمرء عيشه.. نحن الذين اخترنا مهنة الصحافة ولن نتوانى يوما عن الاستمرار فيها حتى في أحلك الظروف، لكن هذه المرة وفق المتاح فعلا.

وفي جزئية ربما تكون طريفة، شكّلت مراكز الإيواء وأبرزها المدارس مكانا لاستيعابنا في عملية شحن الهواتف والحواسيب وبطاريات الكاميرات؛

> **حرمت نفسي في كثير من الأيام من شرب الماء لتوفيره لابني، من حصتي بالخبز لأجله! هذا ما أستطيع توفيره وصولا لمشاعري التي أرفض التعبير عنها كي لا يراني منهارة. في الحقيقة أنا أبكي من دون صوت ولا دموع، أشعر أن الله يحتضنني بعنايته ويجعلني أتماسك، لكن لا أعرف كيف سيكون انهياري في النهاية.**

لأن الكهرباء تصلها لساعات محدودة بخلاف الخيام والمنازل الناجية من القصف..

وفي النزوح وتفاصيل العيش، لا يوم يشبه الآخر؛ لليوم الواحد فصول عديدة يكون أولها تأمين المياه، وليس مُهمًّا إن كانت صالحة، يكفي أن نجدها لغسل وجوهنا العابسة الشاحبة تحت حمم القصف الطويلة، ثم المرور في مرحلة البحث عن الخبز والطعام وإشعال نيران الحطب للطهو في ظل انقطاع الغاز.

أذكر في أحد الأيام أنني استيقظت على صوت طفلي يطلب قطعة من الخبز، لم يكن متوفرًا، ولم يقتنع بذلك، استيقظ رفاق النزوح على صوته الذي صار يعلو، وصار الجميع يبحث عن رغيف ربما تُرك في إحدى زوايا المطبخ من دون جدوى.. حاولنا إقناعه ببسكويت يُغمس بالشاي لكنه

رفض؛ كيف سيفهم عُمر ابن الأعوام الأربعة مأساة الجوع التي جعلتنا إسرائيل نعاني منها؟ لن يفهم بالتأكيد.

لم يكن لدينا معدات سلامة مهنية؛ لا درع ولا خوذة ولا حتى شنطة إسعافات صغيرة. كنا نسير أنا وأنس لمسافات طويلة تحت تهديد القصف نحمل معدات التصوير فوق ظهورنا، ويحالفنا الحظ عندما نجد عربة تجرها دواب لتوصلنا إلى موقع التصوير. لم يكن يهمّنا التعب بقدر ما يهمّنا أن نصل رغم انعدام فرص الأمان.

حرمت نفسي في كثير من الأيام من شرب الماء لتوفيره له، من حصتي بالخبز لأجله! هذا ما أستطيع توفيره وصولا لمشاعري التي أرفض التعبير عنها كي لا يراني منهارة.. في الحقيقة أنا أبكي من دون صوت ولا دموع، أشعر أن الله يحتضنني بعنايته ويجعلني أتماسك، لكن لا أعرف كيف سيكون انهياري في النهاية.

كأني ولدت في الحرب.. عشتها.. مت فيها.. أموت فيها كل يوم وأحيا لأعيش جولات التصعيد والحصار والحروب اللاحقة وصولا إلى يومنا هذا.. القصص ذاتها.. العدو ذاته..

المأساة ذاتها.. قتل وتشريد وتهجير وتدمير ونزوح وتجويع وحرمان، هذه إسرائيل لم تترك لنا مجالا لنعيش يوما طبيعيا من دون حزن.

«لسنا بخير».... أقل ما يمكن قوله بعد أكثر من 200 يوم في تغطية حرب الاحتلال على قطاع غزة، وهذه رسالة لأي إنسان من خارج القطاع يسألني: كيف حالك؟ هكذا أجيبك في قلبي، فلا تصدّق كل يوم كذبت عليك فيه وقلت إنني بخير.

« أذكر في أحد الأيام أنني استيقظت على صوت طفلي يطلب قطعة من الخبز، لم يكن متوفرًا، ولم يقتنع بذلك. كيف سيفهم عُمر ابن الأعوام الأربعة مأساة الجوع التي جعلتنا إسرائيل نعاني منها؟ لن يفهم بالتأكيد».

«إننا نطرق جدار الخزان»

سمية أبو عيطة

تجربة سمية أبو عيطة في تغطية حرب الإبادة الجماعية في غزة فريدة ومختلفة. يوم السابع من أكتوبر ستطلب من إدارة مؤسستها بإسطنبول الالتحاق بغزة. حدس الصحفية وزاد التجارب السابقة، قاداها إلى معبر رفح ثم إلى غزة لتجد نفسها مع مئات الصحفيين الفلسطينيين «يدقون جدار الخزان».

سأكون صريحة وأعترف بأني كتبت المقدمة بعد أن أنهيت المقال.. قرأته وحاولت إيجاد عنوان أو خط عريض يحكمه فوجدته زفرات وتنهيدات أطرق فيها بين العبارة والأخرى وأحدق في بياض الصفحة أمامي وأتذكر.. أقول لنفسي «مستحيل يا ربي مستحيل!» ولا أصدق كل ما حدث ويجري. «طوفان الأقصى».... سمعت العبارة أول مرة بينما كنت أجهز حقيبتي في صبيحة السابع من أكتوبر على أمل أن توافق إدارة القناة التي أعمل فيها (تي أر تي عربي) على إرسالي من إسطنبول لتغطية العدوان -القادم بلا شك- على قطاع غزة.. وكذلك كان.

كنت الصحفية الوحيدة التي ابتُعثت إلى القطاع من خارجه، ومن يومئذٍ حتى اليوم -وقت كتابة هذا المقال- لم ينجح العالم (ولعله لم يحاول) في إدخال صحفيين إلى القطاع كما في عادة الحروب الطاحنة، وكما يحدث في مناطق غلاف غزة!

«فقدتُ عقلي».. هذه إجابتي العفوية عن السؤال الذي ظل يُطرح عليّ من يومئذٍ «لماذا فعلتِ ذلك؟» كان كل شيء في ذلك اليوم يدعو المرء إلى الجنون والصراخ! الفيديوهات التي ظلت تتدفق وظللت أعيد مشاهدتها وأنا في انتظار موعد الطائرة.

فتاة وحيدة في حافلة تحفل بالشباب، كان الطريق من مطار القاهرة إلى معبر رفح البري طويلا وشاقا، زاد طولَه طول التفكير وانقطاع الإنترنت وصعوبة معرفة الأخبار.... أي شيء يجري في قطاع غزة الآن؟ كانت وسائل التواصل الاجتماعي تغرق بفيديوهات لا أزال إلى اليوم أفاجأ بين الحين والحين بأني لم أكن شاهدتها.. عند كل حاجز في سيناء، أُسأل عن «الدرع والخوذة» اللذين لم أرتدهما بعد، حتى لقد هممت بالتخلي عنهما، وكانت الحماسة يومئذ تفعل فعلها في دمي، أسخر من نفسي وأنا أتذكر الآن كيف اندفعت مثلا لأقول للجنود المصريين: «وتظنون أن المقاومة بحاجة لدرعي وخوذتي بعد ما فعلته أمس».

دخلت جو الحرب لأول مرة في الثامن من أكتوبر وانطلقت سيارة صحفية تطوي شارع صلاح الدين من معبر رفح إلى مدينة غزة، حيث يقيم أهلي في حي الشيخ رضوان؛ الغارات بدأت للتو.

كان المشهد الأول: مصاب يصل بسيارة مدنية وقد بترت رجله! في بيتنا، لم يكن أحد على علم بقدومي إلا شقيقي.. فاجأتهم كثيرا لكنهم فاجؤوني ببيوت فلان وفلان من أقاربنا التي سوَّتها طائرات الاحتلال بالأرض.. تلك كانت لحظاتي الأولى في قطاع غزة، أذكرها الآن ولا أصدق أن الموت لا يزال يهدر في شهره السابع، كيف طال علينا أمد الأوجاع فقست قلوب العالمين وجعلتنا نحتل عناوين الأخبار يوميا!

لم تكن غزة بالتأكيد الحلقة الأولى في سلسلة الجرائم الإسرائيلية بحق الصحفيين، لكنها كانت الحلقة الكبرى! تلك الجرائم لم تنتظر طويلا؛ إذ بدأت مبكرا منذ الأيام الأولى للإبادة.. في 11 أكتوبر/ تشرين الأول 2023 كنت وعشرات من الصحفيين نقيم في فندق

الروتس غرب مدينة غزة بعد أن أجبرتنا اتصالات جيش الاحتلال على مغادرة مكاتبنا، ثم ما لبثت أن استهدفت مبنى قبالتنا مباشرة بالطائرات الحربية F16، ثم أطلقت عند بوابة الفندق قنابل الفسفور الأبيض المحرم دوليا وتركتنا عالقين لساعات هناك! كنا نحن الصحفيين في بؤرة النار منذ اليوم الأول.

كانوا أبطالا.. زملائي جميعا كانوا أبطالا حقيقيين في هذه القصة المميتة، وعرف الناس ذلك -صغيرهم وكبيرهم- فصار الأطفال يتمنون أن يصيروا صحفيين حين يكبرون وأخذوا يلبسون الخوذات والدروع الصحفية ويمارسون المهنة بين أعيننا! في واقع طبيعي لم يكن الصحفي ليأخذ كل

> **طوفان الأقصى».. سمعت العبارة أول مرة بينما كنت أجهز حقيبتي في صبيحة السابع من أكتوبر على أمل أن توافق إدارة القناة التي أعمل فيها على إرسالي من إسطنبول لتغطية العدوان -القادم بلا شك- على قطاع غزة.**

هذه المكانة لولا الثمن الباهظ الذي يدفعه كل لحظة! ولم يكن ليكون هو القصة والخبر والصورة وهو الضحية وهو المتهم بالإرهاب!

هو المسعف لزملائه حين يُستهدفون معا، وهو المصلّى عليه صلاة الجنازة والمحمول على الأكتاف مكفنا بالبياض، وهو المنقذ لأطفال –قد يكونون أطفاله شخصيا- ولا سبيل لإخراجهم من تحت الركام، وهو المغشيُّ عليه على الهواء مباشرة من الجوع أو الإرهاق أو كليهما، الباكي على الأطلال المقيم في الخيام، أنفه مزكوم برائحة الجثامين.

«لم تكن غزة بالتأكيد الحلقة الأولى في سلسلة الجرائم الإسرائيلية بحق الصحفيين، لكنها كانت الحلقة الكبرى وواسطة العقد الأسود. تلك الجرائم لم تنتظر طويلا؛ إذ بدأت مبكرا منذ الأيام الأولى للإبادة» (تصوير: حاتم خالد - رويترز).

في واقع طبيعيّ لم يكن الصحفي ليأخذ كل هذه المكانة لولا الثمن الباهظ الذي يدفعه كل لحظة! ولم يكن ليكون هو القصة والخبر والصورة وهو الضحية وهو المتهم بالإرهاب!

كان الصحفيون قريبين من الناس يسمعون منهم كل يوم سؤالهم إياه «فش حواليكو هدنة؟» يناور في الإجابات لئلا يحبط الناس: ما بين «الله كريم يا خالتي»، «فش إشي أكيد»، «لسة في مفاوضات»، «قولوا يا رب»، «هيهم بيتباحثوا».. والناس تستسقيه خبرا واحدا منذ اليوم الأول وهو وقف إطلاق النار وانتهاء الحرب وعودتهم إلى مدنهم وأطلال بيوتهم المهدمة!

الناس يلجؤون إلى الصحفيين لمعرفة الأخبار، ولا سيما مع انقطاع التيار الكهربائي من اليوم الأول والضعف الشديد في وسائل الاتصالات والإنترنت، يستفسرون منهم عن أماكن المياه والدواء وأسماء الشهداء وعوائلهم وأعدادهم، ويشحنون بطاريات هواتفهم في سيارات البث، وكثيرا ما يهرع شهود العيان إلى نقاط الصحفيين في المستشفيات، يدلون بشهاداتهم ممهورة بالدموع والعرق وكثير من التنهيدات.

كانوا أسرة صحفية، كأي أسرة فلسطينية يختلفون في آراء ويتفقون في أخرى، ويأكلون على الأرض في خيمتهم ويتجاذبون فيها أطراف آرائهم ومشاعرهم، يضحكون معا ويشتمون الواقع المر ويتشاجرون ويتصالحون في اليوم نفسه، يشربون القهوة والشاي معا (قبل انقطاعها)، ومعًا يدخّنون.. تختلف توجهات الجهات التي يعملون لديها، بين الإعلام العربي والعالمي المكتوب والمرئي ووكالات الأنباء: مراسلون ومصورون وفنيون ومهندسو بث، وقد جعل طول أمد الحرب هذه المرة علاقاتهم أقوى ومعرفة بعضهم ببعض

«كانوا أبطالا. زملائي جميعا كانوا أبطالا حقيقيين في هذه القصة المميتة، وعرف الناس ذلك -صغيرهم وكبيرهم- فصار الأطفال يتمنون أن يصيروا صحفيين حين يكبرون» (تصوير: أحمد حسب الله - غيتي).

أكبر؛ لذا فالعبارة صادقة حرفيا حين يقال إن «الأسرة الصحفية» في قطاع غزة فقدت أكثر من 140 شهيدا حتى وقت هذه الكلمات منذ 7 أكتوبر!

قلة من هؤلاء الصحفيين في ظل وحشية صراع البقاء قرروا أن يتركوا العمل ويقفوا على طوابير المياه والحساء لتوفير «شيء ما» يبقي أطفالهم أحياء، تفاجئك الإجابة «بطَّل صحفي هيو قاعد في خيمة مع أولاده» حين تسأل عن صحفيين اغتالتهم طائرات ومدفعيات الاحتلال أو شلت حركتهم.

الناس يلجؤون إلى الصحفيين لمعرفة الأخبار، ولا سيما مع انقطاع التيار الكهربائي من اليوم الأول والضعف الشديد في وسائل الاتصالات والإنترنت، يستفسرون منهم عن أماكن المياه والدواء وأسماء الشهداء وعوائلهم وأعدادهم، ويشحنون بطاريات هواتفهم في سيارات البث.

أما غالبيتهم فلا يزالون يفعلون الشيء نفسه منذ أول يوم؛ يحاولون النجاة بأنفسهم وبالحقيقة معا.. وكأي كائن بشري مسكون بالوساوس تارة واليقين تارة أخرى، ظلت أسئلة الجدوى تطرح في عقول هؤلاء جميعا مع كل مجزرة وكل ليلة -والليل في غزة مرعب فكلما جاءت ليلة لعنت أختها-. هل تصل الحقيقة حقا للعالم، وإن نجحنا في إيصالها فهل يستقبلها العالم؟ وإن استقبلها فهل سينجح هذا العالم في إلجام الوحش الهائج علينا الموغل في دماء أولادنا وبناتنا.. أسئلة صعبة لكنهم لا يزالون يطرقون جدران الخزان.

«ظلت أسئلة الجدوى تطرح في عقول هؤلاء جميعا مع كل مجزرة وكل ليلة، هل تصل الحقيقة حقا، وإن نجحنا في إيصالها فهل يستقبلها العالم؟» (تصوير: عرفات بركة - رويترز).

الصحفي الغزي وصراع «القلب والعقل»

مرام حميد

يسكن في جوف الصحفي الفلسطيني الذي يعيش في غزة شخصان: الأول إنسان يريد أن يحافظ على حياته وحياة أسرته، والثاني صحفي يريد أن يحافظ على حياة السكان متمسكا بالحقيقة والميدان. بين هذين الحدين، أو ما تصفه الصحفية مرام حميد، بصراع القلب والعقل، يواصل الصحفي الفلسطيني تصدير رواية أراد لها الاحتلال أن تبقى بعيدة «عن الكاميرا».

أنا مُرهقة.... هذه الكلمة هي ملخص ما يزيد على ست أشهر من التغطية للحرب المستمرة على غزة.

مرهقة بسبب عقلي وقلبي اللذين يتعاركان طوال الوقت. يتعاركان على القصص التي كتبتها وأكتبها وسأكتبها، وعلى اختيار القصص المؤلمة التي لا حصر لها من حولنا، وهي قصص مأساوية وحزينة وقاهرة لا تستطيع أن تمر عليها مرور الكرام. إنه صراع صعب ومحتدم بينهما؛ صراع العقل والعاطفة.

لا يبدو أي شيء منطقيا، وإن تحدثنا عن المنطق فإن النتيجة الطبيعية لما نشهده من أهوال الحرب المستمرة منذ شهور سيتركنا بلا شك مرهقين، فلا قلب ولا عقل يتحملان كل هذا اللامنطق.

أنام وأصحو وأمشي وأطبخ وأغسل الغسيل على يدي، وأعتني بطفلي الرضيع بينما عقلي مشغول يعمل ويكتب القصص التي يرصدها طوال الوقت؛ يكتب عن السيدة التي لا تجد خيمة تنام فيها مع أطفالها الأربعة وتنام في الشارع، وعن الرجل الذي أفرج عنه أخيرا بعدما أسره الاحتلال من الشمال ويبيع الشاي في المستشفى، وعن الفتاة التي تدرس طب الأسنان في سنتها الأخيرة ولم تكمل تعليمها وتجلس بائسة في الخيمة، وعن الأم الشابة التي تستجدي الصحفيين كل يوم باحثة لطفلتها الهزيلة البنية عن حليب الأطفال، وعن السيدات اللواتي ينمن في ممرات المستشفى بحثا عن سقف يؤوي أطفالهن من الحر والبرد.

يعمل عقلي طوال الوقت، يفكر في كل مشهد يقابله يوميا في ميدان العمل الممتد من باب المنزل الذي نزحت إليه حتى أروقة المستشفى الذي يعج بالنازحين والشهداء والجرحى.

منذ أن بدأت الحرب وأنا أفعل ما بوسعي، لكنني كثيرا ما أقف عاجزة.. أقول لنفسي ولزملائي في غرفة التحرير إنني أحتاج عشرين صحفيا ليعملوا معي وليوثقوا قليلا مما أراه، لا يتسع المكان ولا الزمان ولا القدرة الجسدية والاستيعابية لتوثيق كل هذه الفظاعة.

في المقابل، عقلي لا يهدأ، يكتب ويمسح ويرسل الأفكار والمقترحات ويجد في كل خطوة مادة صحفية يجب أن تروى، لكن قلبي وجسدي لا يستطيعان، قلبي يكاد يتوقف وجسدي لم يعد قادرا. قلبي لا ينفك عن تذكير عقلي باستمرار أنني ضمن هذه الدائرة وأنني لست بمعزل عن هذه القصة؛ فأنا نازحة تركت منزلي منذ بداية الحرب نحو الجنوب، وأم لطفلين، قُصف منزلي الجميل الذي لم يمض على انتقالنا إليه عام ونصف، سُوي المنزل بالأرض والذكريات كلها تحت

«يعمل عقلي طوال الوقت، يفكر في كل مشهد يقابله يوميا في ميدان العمل الممتد من باب المنزل الذي نزحت إليه حتى أروقة المستشفى الذي يعج بالنازحين والشهداء والجرحى».

الأنقاض.. أصارع يوميا لتوفير حليب الأطفال لطفلي الرضيع، ولتوفير الطعام والخضار بأسعار خيالية، وحزينة جدا لأن طفلتي ذات الأعوام الثمانية تجلس من دون دراسة أو تعليم، وفاتها العام الدراسي أسوة ببقية الأطفال.. والأهم من ذلك أن القصف متواصل: قريب وبعيد، أمامنا وخلفنا، بجانبنا وبمحاذاتنا، من فوقنا ومن تحتنا، ليلا ونهارا، نعيش على أعصابنا منذ شهور خوفا من ضربة مباغتة.. «يا الله تعبنا».

لكن عقلي لا يتوقف عن سحبي من مكاني كل يوم.. ما رأيك أن تعملي اليوم على قصة الفتاة المليئة بالنشاط والطاقة التي تقف في طابور الخبز يوميا صباحا، وفي المساء تجمع ملابس الصحفيين الذين يبيتون في المستشفى لتغسلها بمقابل مادي زهيد لتساعد عائلتها؟ هذه قصة قوية يجب أن يعرفها الناس.. وقصة ذلك الشاب الطموح الذي يثبت هاتفا محمولا في الهواء على عمود خشبي طويل ويستخدمه لتوزيع الإنترنت على الناس في المخيم، صدقيني هذه قصة قوية أيضا، خسارة اكتبي عنها..

أنام وأصحو وأمشي وأطبخ وأغسل الغسيل على يدي، وأعتني بطفلي الرضيع بينما عقلي مشغول يعمل ويكتب القصص التي يرصدها طوال الوقت.

يتحايل عقلي عليّ للحظات، يقنعني كل يوم فأهم بتجهيز نفسي للعمل.. أجهز طفلي وأطلب من أختي أن تعتني به.. أرتدي ملابسي وسترة الصحافة وأركب السيارة لأذهب إلى المستشفى؛ مكان العمل والإنترنت ومكان اللقاء بكثير من «القصص» التي يمكن نشرها.

في الطريق إلى المستشفى تبدأ طاقتي فورا بالانخفاض؛ آلاف من النازحين في الشوارع، في كل مكان يبيعون الحطب وبطاقات الإنترنت، خيم النايلون، طوابير المياه والخبز، العرق والبشرة المحترقة من الشمس، التعب والكدر على وجوه الجميع، آلاف من الجالسين على الأرصفة، البؤس في كل مكان..

يرتعب عقلي من هذه المشاهد لأنه يخاف أن أتراجع.. يقنعني أنه يجب أن نتأقلم، ثم يتنفس الصعداء لأنني سلكت طريقة التفافية أخرى.

نصل إلى المستشفى، أصطدم مجددا بطابور المياه للنازحين هناك، أنظر إلى السيدة التي تبكي من التعب والانتظار، أدخل المستشفى فتأتيني السيدة الشابة التي تسألني عن الحفاظات لطفلتها ولا أستطيع أن أعدها بالمساعدة، فتعتذر وتذهب..

منذ أن بدأت الحرب وأنا أفعل ما بوسعي، لكنني كثيرا ما أقف عاجزة. أقول لنفسي ولزملائي في غرفة التحرير إنني أحتاج عشرين صحفيا ليعملوا معي وليوثقوا قليلا مما أراه، لا يتسع المكان ولا الزمان ولا القدرة الجسدية والاستيعابية لتوثيق كل هذه الفظاعة.

أقف صامتة وأنا أرى طابور السيدات والرجال قرب الحمام؛ لا خصوصية، ولا نظافة، والاستحمام يبدو حلما في مثل هذه الظروف.

أمشي قليلا أمام بوابة الطوارئ لتأتي سيارة إسعاف من الخلف، يركض الناس نحوها ويتحلقون حولها، ويركض الصحفيون باتجاهها ويقولون «استهداف في البريج». يخلي المسعفون مزيدا من الجرحى والشهداء الممزقين، وتأتي سيارتان مدنيتان تضغطان على بوق السيارة السريع وتنقلان إصابتين من المكان؛ امرأة مصابة

«في الطريق اليومي إلى العمل، خيم النايلون، طوابير المياه والخبز، العرق والبشرة المحترقة من الشمس، التعب والكدر على وجوه الجميع، ورعب شخصي من كل هذه المشاهد» (تصوير: أحمد حسب الله - غيتي).

في رأسها وشابًا مصابًا في صدره.. يصرخون في الناس: «ابتعدوا افتحوا الطريق».

أنا نازحة تركت منزلي منذ بداية الحرب نحو الجنوب، وأم لطفلين، قُصف منزلي الجميل الذي لم يمض على انتقالنا إليه عام ونصف، سُوي المنزل بالأرض والذكريات كلها تحت الأنقاض. أصارع يوميا لتوفير حليب الأطفال لطفلي الرضيع.

كأنها القيامة! لكنني اعتدت على المشهد، أضع حقيبتي في خيمة العمل وأخرج لأسمع الصراخ على جثة طفلة شهيدة، وأرى حشدا قليلا من الناس يصلون صلاة الجنازة على شهيد انتشلوه من تحت الأنقاض أمس.. يركض الناس ما بين ثلاجة الموتى والاستقبال، وتأتي الأمهات والنساء مفجوعات بأخبار «الحبايب» الذين خطفتهم الصواريخ الإسرائيلية.. يصرخن ويبكين ويرتمين أرضا، ويصرخ فيهن الرجال: شدي حيلك، ابنك شهيدا! تتكدس الثلاجة بمزيد من الشهداء بينما يزدحم الناس أمام المغسلة؛ غسيل الجثث له طابور أيضا! يحمل الأب جثة طفلته وينتظر دوره للتغسيل والتكفين، لا معزين ولا جنازات، من يحظى بفرصة التكفين والدفن في المقبرة كمن حيزت له الدنيا في هذه الأوقات.. ينادي مناد لصلاة جنازة سريعة على عدد من الشهداء، فيصطف سبعة رجال أو ثمانية ويصلون الجنازة، ثم يحمل الناس جثث أحبائهم ويمضون مشيا على الأقدام إلى الدفن.. كل هذا بينما يبيع الرجل الشاي، ويحتسي الناس المنهكون حوله القهوة ويبيع الأطفال الترمس والفستق المحمص لتحصيل لقمة العيش.. لقد أصبح المشهد عاديا جدا، والحزن بتفاصيله أصبح ترفا؛ لا وقت ولا مكان لوداع «الحبايب» يا غزة. عقلي -وسط كل هذا- يخجل مني، يصمت ويهدأ تماما، يتوقف عن «الزن».. عقلي الآن يفهم أنني لا أستوعب، عقلي يعرف أنه خسر المعركة من جديد.. المعركة اليومية للعمل على قصة صحفية جديدة.

فعلا من يستوعب كل هذا؟ من يقدر في العالم على احتمال كل هذا؟ يوميا يا ناس؟ بالتأكيد لا أحد..

نجلس معا أنا وعقلي، نبرم اتفاقا صغيرا على أن نهدأ قليلا ونريح أنفسنا لأنه لا فائدة؛ لا فائدة من الكتابة ولا الحديث. لا عقل ولا قلب هنا لاحتمال المزيد.

ثم تستيقظ فينا الحيرة من جديد؛ إن لم نكتب فمن سيكتب؟ إن لم نغطِّ فمن سيغطي؟ من سيروي قصص الشهداء ومن سيوثق الكارثة للتاريخ؟ يا الله ما هذا الظلم! كيف تموت القصة وكيف نواري أحباءنا الراحلين في هذه الإبادة من دون توثيق أو عزاء؟

«لا يفعل العالم شيئا»، أنهض من مكاني بينما أغلق الحاسوب.. يزداد القصف وتنقل سيارات الإسعاف المزيد.. على رأس الساعة يقف الزملاء المراسلون لتبدأ «اللايفات» (التغطيات الحية).. أمشي أمام كاميرات المباشر غير آبهة؛ أكثر من 200 يوم من اللايفات والمقابلات والمقالات، ما الفائدة يا قلبي؟ ما الفائدة يا عقلي؟

«ثم تستيقظ فينا الحيرة من جديد؛ إن لم نكتب فمن سيكتب؟ من سيروي قصص الشهداء ومن سيوثق الكارثة للتاريخ؟ كيف تموت القصة وكيف نواري أحباءنا الراحلين في هذه الإبادة من دون توثيق أو عزاء؟».

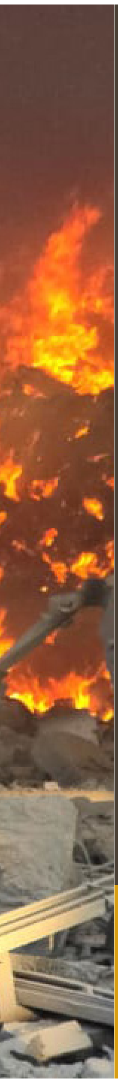

أنس الشريف.. «أنا صاحب قضية قبل أن أكون صحفيا»

تحرير المقابلة: محمد أحداد

من توثيق جرائم الاحتلال على المنصات الاجتماعية إلى تغطية حرب الإبادة الجماعية على قناة الجزيرة، كان الصحفي أنس الشريف، يتحدى الظروف الميدانية الصعبة، وعدسات القناصين. فقد والده وعددا من أحبائه لكنه آثر أن ينقل «رواية الفلسطيني إلى العالم». في هذه المقابلة نتعرف على وجه وملامح صحفي فلسطيني مجرد من الحماية ومؤمن بأنّ «التغطية مستمرة».

بدأت القصة بنشر مقاطع مصورة وصور للأماكن التي يستهدفها الاحتلال عبر صفحات منصات التواصل الاجتماعي لتنتهي بتهديد ووعيد بقصف أفراد العائلة.

لا تبدو قصة الصحفي الفلسطيني أنس الشريف، الذي أصبح مراسلا لقناة الجزيرة، مختلفة كثيرا عن قصة مئات الصحفيين الفلسطينيين الذين وجدوا أنفسهم، فجأة، يوثقون جرائم الاحتلال المستمرة في قطاع غزة وعموم فلسطين المحتلّة.

رواية فلسطينية بأي ثمن

يروي أنس لمجلة الصحافة قصته مع توثيق جرائم الاحتلال: «منذ السابع من أكتوبر، بدأت بالنشر على صفحاتي الشخصية على منصات التواصل الاجتماعي وعبر وكالات دولية ومحلية وعالمية، والهدف هو إخراج الصورة من شمال غزة أمام الحصار المفروض على دخول الصحفيين الأجانب من طرف الاحتلال، والحقيقة أن هذه الفترة هي التي أسست لالتحاقي بقناة الجزيرة التي كنت أزودها بالفيديوهات والتقارير قبل أن يتواصل معي الزميل تامر الذي قال لي بوضوح: اخرج بتقرير بوجهك وشخصيتك وتحدث وأنهِ التقرير بـ: أنس الشريف لصالح قناة الجزيرة».

انتقل أنس الشريف من توثيق الجرائم على منصاته الرقمية إلى العمل في قناة الجزيرة، التي تعرّض صحفيوها للاستهداف المباشر منذ بداية حرب الإبادة الجماعية.. يتذكر أنس الشريف أول تقرير له بُثّ على القناة: «كان لاستهداف في جباليا لمستودعات أخشاب

«نحن أبناء مخيم جباليا وعشنا في هذا المخيم، ومرت علينا حروب كثيرة ولم نغادر للحظة واحدة. لقد زادني تهديد الاحتلال إصرارا على مواصلة التغطية»(خاص).

ومواد تنظيف ومواد كيماوية، لقد ظهرت بوجهي، والحقيقة أنها كانت لحظات صعبة وشيئا جديدا علي؛ لأني كنت أعمل خلف الكواليس، أما الآن فأظهر بشخصيتي على أكبر قناة».

لم تخلُ مسيرة أنس الشريف، الذي يُعد من الصحفيين القلائل الذين ظلوا يغطون من شمال غزة، من اصطدام مع الاحتلال الإسرائيلي.. «لقد تلقيت عدة اتصالات من قبل الاحتلال على هاتفي الشخصي، ولم أرد عليهم إطلاقا ولم أستجب لرسائلهم.. لم يكتفوا بذلك، بل وصلتني تسجيلات صوتية عبر الواتساب من ضابط بالمخابرات الإسرائيلية تدعوني إلى التوقف عن التغطية والانتقال من شمال غزة والتوجه إلى الجنوب، وإلا فسأستهدَف أنا وعائلتي».. بيد أن جواب أنس، الذي تخرج في جامعة الأقصى/ تخصص الإذاعة والتلفزيون، كان واضحا: «أنا وعائلتي لن نغادر من شمال قطاع غزة، ولم نفكر في القرار ولو للحظة واحدة.. نحن أبناء مخيم جباليا وعشنا في هذا المخيم، ومرت علينا حروب كثيرة ولم نغادر للحظة واحدة على مدار السنوات السابقة، أما قرار والدي الحاسم فهو عدم المغادرة نهائيا.. لقد زادني هذا التهديد إصرارا على مواصلة التغطية».

نفذ الاحتلال وعيده، فاستهدف منزل عائلة أنس:«استشهد والدي رحمه الله الذي أصر على البقاء وعدم مغادرة مخيم جباليا رغم التهديدات ورغم كل شيء. هذه ضريبة دفعها كل مواطن يعيش في قطاع غزة».

نفذ الاحتلال وعيده، فاستهدف منزل أنس ومنزل عائلته.. «استشهد والدي رحمه الله الذي أصر على البقاء وعدم مغادرة مخيم جباليا رغم التهديدات ورغم كل شيء.. هذه ضريبة دفعها كل مواطن يعيش في قطاع غزة، ولا تختلف مأساتي عن ملايين الفلسطينيين، وبعيدا عن المشاعر التي خلفها هذا القتل، لكن أحس أني منتمٍ لهذه القضية ومطوّق بواجب نقل معاناة الفلسطيني إلى العالم».

حماية مفقودة

درجت الأدبيات على تحديد مخاطر ممارسة الصحافة في مناطق الحروب والنزاعات للمساعدة على تحسين جودة التغطية وحماية السلامة الشخصية للصحفيين، لكن ممارسة الصحافة في فلسطين، وفي غزة حيث تستمر حرب الإبادة الجماعية منذ أكثر من ستة أشهر، تبدو تجربة مختلفة؛ ذلك أن الاحتلال في نظر أنس «لم يترك مكانا آمنا في شمال قطاع غزة؛ إذ استهدف المستشفيات التي كنا ننقل منها معاناة الناس، واستهدف المدارس ومراكز الإيواء، والإسعافات...... بصيغة أخرى، لم يبق في غزة مكان واحد لاتخاذ تدابير السلامة المتعارف عليها، وما أشعرنا بالمرارة هو غياب حماية الصحفيين سواء من المؤسسات الدولية أو المنظمات المحلية».

لا يريد أنس أن يجيب عن سؤال الحماية الدولية للصحفيين والاعتراف بهم مكتفيا بالقول: «ربما أنا لا أريد أن أجيب عن هذا»، مفسرا هذا الاختزال بأنه «لم تستطع أي مؤسسة دولية أو محلية أو إقليمية حماية الصحفيين في قطاع غزة رغم ارتكاب الاحتلال كثيرا من الجرائم بحقهم واستهدافهم وإطلاق النار عليهم، وما قُدِّم إليهم حتى الآن غير كاف؛ لأن المخاطر عالية جدا، لا تمسهم فقط بل تمس أيضا عائلاتهم».

> **لا يريد أنس أن يجيب عن سؤال الحماية الدولية للصحفيين والاعتراف بهم مكتفيا بالقول: «ربما أنا لا أريد أن أجيب عن هذا»، مفسرا هذا الاختزال بأنه «لم تستطع أي مؤسسة دولية أو محلية أو إقليمية حماية الصحفيين في قطاع غزة رغم ارتكاب الاحتلال كثيرا من الجرائم بحقهم.**

ورسالة أنس إلى المؤسسات الدولية والمحلية والإقليمية

هاتف نصف مهشم وبإمكانيات محدودة، كان سلاح أنس خلال أصعب التغطيات وأخطرها من شمال غزة (خاص).

التي تتغنى بالعمل الصحفي وبحماية الصحفيين «أن تنظر إلى الصحفي الفلسطيني الذي يتعرض للخطر الشديد ويتعرض للقصف وللمجازر هو وعائلته، وأن توفر له الحماية؛ لأنه الصوت الأخير لما يجري في غزة الآن».

حسب الأرقام المتوفرة حتى الآن، فإن الاحتلال قتل أكثر من 140 صحفيا؛ أي إن فلسطين أصبحت بيئة غير قابلة للعمل الصحفي، ورغم ذلك فإن أنس يرى أن نقل رواية ما يجري في غزة من الميدان يشعرك «أنك تقدم شيئا إيجابيا للناس في ظل استمرار المجازر والتجويع...... عندما أنقل معاناة أحد أبناء غزة أشعر أني قدمت ولو مساهمة بسيطة لقضيتي قبل أن أكون صحفيا.. هذه قضيتي منذ أن ولدت هنا في غزة في مخيم جباليا.. ومن ثَم فقبل أن أكون صحفيا أنا صاحب قضية أحاول أن أوصلها للعالم».

قوة الميدان

في المجال الحيوي للصحفي، أي الميدان، بدأ أنس الشريف عمله الصحفي «مصورا صحفيا، أنقل الأحداث الميدانية من قطاع غزة وبالتحديد من شمال القطاع، سواء الفعاليات الشعبية والمحلية أو فعاليات الفصائل الفلسطينية، وأنقل معاناة أهالي الأسرى وأوثق مسيرات العودة وكسر الحصار على الحدود الشرقية لقطاع غزة.. كان عملي كله مقتصرا على التصوير الصحفي، وقد حصلت على جوائز كثيرة تكريما لتغطيتي مسيرات العودة وكسر الحصار».

التحول أو المنعطف الأساسي في المسار المهني حدث يوم هجوم السابع من أكتوبر.. «كان الأمر مختلفا تماما في تجربتي المهنية، وما ساعدني هو أني اشتغلت مصورا أجهز المادة ثم أوضبها وأختار زوايا المعالجة.. بمعنى آخر، عملت مراسلا ومنتجا ومصورا بالهاتف المحمول».

> **التحول أو المنعطف الأساسي في المسار المهني حدث يوم هجوم السابع من أكتوبر. «كان الأمر مختلفا تماما في تجربتي المهنية، وما ساعدني هو أني اشتغلت مصورا أجهز المادة ثم أوضبها وأختار زوايا المعالجة. بمعنى آخر، عملت مراسلا ومنتجا ومصورا بالهاتف المحمول».**

يحكي أنس عن الساعات الأولى لهجوم السابع من أكتوبر ومدى استعداد الصحفيين للتغطية الميدانية، فما حدث «كان مفاجئا للجميع، وأمام تسارع وتيرة الأحداث لم نجرِ أي ترتيبات كما في الحروب السابقة، والميدان هو الذي فرض علينا شكل التغطية.. كنا نتسابق مع الزمن من دون أي ترتيبات سابقة بالنظر إلى الحجم الكبير للمجازر في أماكن مختلفة.. وأريد أن أشير هنا إلى أنه مع تطور الأحداث تحسنت التغطية الميدانية وأصبحنا نركز على المجازر رغم قسوة ما نراه».

تختلف تجربة التغطية الصحفية في غزة عن بقية مناطق الحروب؛ فطيلة أكثر من 6 أشهر من حرب الإبادة الجماعية، أبلغ الصحفيون عن تحديات استثنائية تتمثل في انعدام الخدمات وانقطاع الكهرباء والاتصالات.. يتحدى

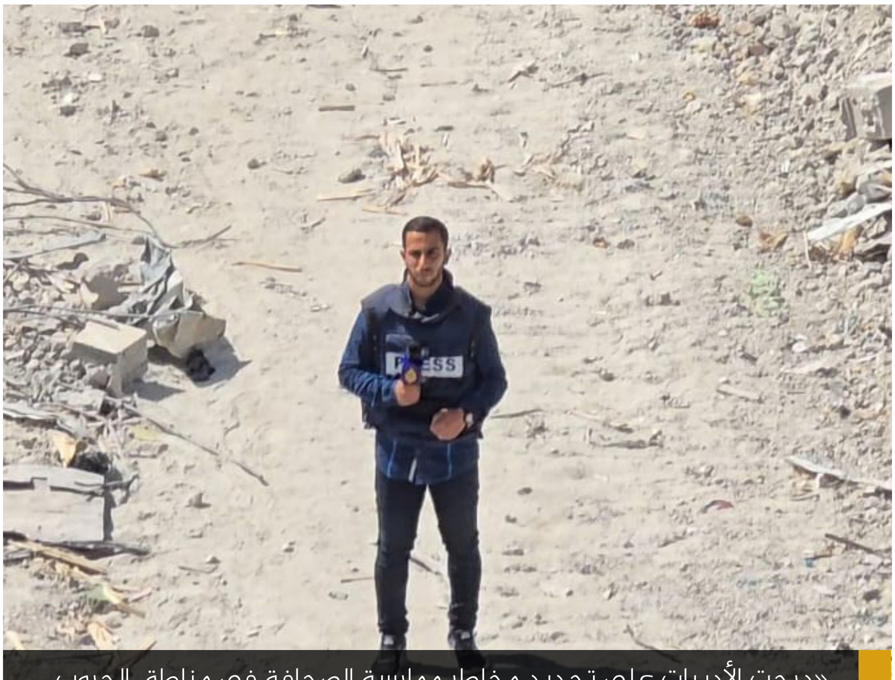

«درجت الأدبيات على تحديد مخاطر ممارسة الصحافة في مناطق الحروب والنزاعات للمساعدة على تحسين جودة التغطية وحماية السلامة الشخصية للصحفيين. لكن ممارسة الصحافة في فلسطين، وفي غزة حيث تستمر حرب الإبادة الجماعية منذ أكثر من ستة أشهر، تبدو تجربة مختلفة».

أنس الشريف هذه الظروف قائلا: «لم أتوقف لحظة عن التغطية، كنت أتنقل فوق أسطح المنازل والمستشفيات بحثا عن إشارة الإنترنت مع ما يرافق ذلك من مخاطر، بالنظر إلى استهدافنا المباشر.. بعد أربع ساعات من الانتظار والمحنة، يُرسَل التقرير بعد أن مضى وقت على المجازر، لكن هاجسي أن يظل صوت الشمال حاضرا.. والحال أني في لحظات معينة أصبحت غير قادر على إجراء اتصالات مباشرة مكتفيا بتسجيلات صوتية فقط».

> **عندما أنقل معاناة أحد أبناء غزة أشعر أني قدمت ولو مساهمة بسيطة لقضيتي قبل أن أكون صحفيا. هذه قضيتي منذ أن ولدت هنا في غزة في مخيم جباليا. ومن ثَم فقبل أن أكون صحفيا أنا صاحب قضية أحاول أن أوصلها للعالم.**

محنة أنس مع التغطية الصحفية في غزة هي اختصار لمحنة الصحفيين القلائل الذين ظلوا في الشمال «مخاطرين بأنفسنا، مستخدمين الشرائح الإلكترونية حتى ولو كانت تنطوي على الخطر؛ فالأهم أن تظل صورة الميدان حاضرة».
التضامن بين الصحفيين كان خط الدفاع الأخير للحفاظ على قيمة الصحافة، كما يروي أنس «فكنا إخوة لبعضنا، نتنقل من مكان إلى آخر جميعا، نوثق جرائم الاحتلال من زوايا مختلفة.. لقد بينت التجربة أن الاحتلال يقصف الصحفيين بشكل متعمد؛ فعلى سبيل المثال وبينما كان الزميل محمد عرب يوثق الدمار في منطقة تل الزعتر في محيط المستشفى الإندونيسي أطلقت الطائرات الحربية ثلاثة صواريخ بشكل مباشر في اتجاه الصحفيين».

كنا محتارين في البداية، هل ننشر هذه المقابلة على الطريقة التقليدية محكومة بالسؤال أو الجواب أو نجعلها تنقل عفوية الأجوبة، فاستقر القرار على الخيار الثاني، لكن رسالة أنس الأخيرة، نتركها كما هي من دون تحرير أو ترتيب

«لقد وثقت كثيرا من المجازر والقصف والمنازل التي تهدمت على رؤوس ساكنيها والمجازر الكبرى التي وصل عدد شهدائها إلى المئات، لكن لم يؤلمني ذلك أكثر من فترة المجاعة التي مرت على شمال قطاع غزة.. الناس هنا تحملت المجازر و دماء الشهداء، وصبرت على الفراق وعلى كل شيء، لكنها لم تتحمل المجاعة وصراخ الأطفال في الليل والأهالي يتجولون ويتنقلون من مكان إلى آخر وهم يناشدون العالم من أجل وجبة طعام واحدة ليوم واحد لأطفالهم.. عانيت من ذلك شخصيا.. يعني ما كنا نلاقي خبز ولا رز ولا معلبات، يعني تمر أيام لا نستطيع أن نوفر وجبة طعام واحدة.. ورغم ذلك قاومنا بقدر ما نستطيع، واستمررنا في التغطية لآخر لحظة ولآخر نفس».

«الميدان هو الذي فرض علينا شكل التغطية. كنا نتسابق مع الزمن من دون أي ترتيبات سابقة بالنظر إلى الحجم الكبير للمجازر في أماكن مختلفة»(خاص).

«الحرب الهجينة».. المعلومات سلاحا في يد الاحتلال

بكر عبد الحق

شكلت عملية «طوفان الأقصى» وما أعقبها من حرب إسرائيلية على قطاع غزة مسرحا لإستراتيجيات متقدمة من التلاعب الجماعي بالمعلومات، وقدمت أمثلة وشواهد حية وافرة على حرب المعلومات التي باتت لازمة للحروب والصراعات والنزاعات في العصر الرقمي للاتصال، ضمن ما بات يعرف في أوساط الباحثين بـ «الحروب الهجينة».

إن الحروب الهجينة ليست بالتأكيد ظاهرة جديدة، وقد أطلق المؤرخون هذا المصطلح لوصف الاستخدام المتزامن للقوات التقليدية وغير النظامية في الحملة العسكرية نفسها، ولكن مطلع القرن الحادي والعشرين، أصبح استخدام المصطلح وسيلة شائعة لوصف الطابع المتغير للحروب المعاصرة.. ويشمل في جملة ممارساته الهجمات السيبرانية والحملات المكثفة للتضليل والتلاعب بالمعلومات؛ إذ أضحت وسائل الإعلام الاجتماعي إحدى قنوات الاتصال الرئيسة المستخدمة لنشر المعلومات المضللة والشائعات والتزييف العميق، وجزءا لا يتجزأ من إستراتيجية الحروب، وتُستخدم على نطاق واسع لتنسيق الأعمال وجمع المعلومات، والأهم من ذلك، للتأثير على معتقدات الجماهير المستهدفة ومواقفهم، بل وتعبئتها من أجل الحرب.

في الحرب الإسرائيلية على غزة التي أعقبت عملية «طوفان الأقصى» في السابع من أكتوبر/تشرين 2023، تسلحت الدعاية الإسرائيلية وحلفاؤها ومؤيدوها بالأكاذيب والتلاعب بالمعلومات بوصفها سلاحا إلى جانب عملياتها العسكرية على الأرض، وتعامل مدققو المعلومات مع أشكال جديدة من التلاعب الجماعي بالمعلومات خلال الحروب لم يسبق لهم التعامل معها، خصوصا في ظل استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في توليد المحتوى المضلل، الذي يصعب تفنيده بالأدلة القاطعة مقارنة بالادعاءات الأخرى..

ومنذ اللحظة الأولى لطوفان الأقصى أدركت إسرائيل أهمية الحرب الإعلامية بوصفها وسيلة لاستمالة الرأي العام العالمي، واستدرار التعاطف معها، وتعزيز صورتها بوصفها ضحية في الوجدان العالمي، ومن ثَمّ تجنيد قوى العالم والدول الكبرى لصالح حربها اللاحقة على قطاع غزة، وما صاحبها من مجازر وحرب إبادة شهد عليها العالم أجمع.. وقد هدفت من ورائها إلى التلاعب بالرأي العام، وتشويش الرؤية

لدى الجمهور، وإيجاد المبررات لعملياتها العسكرية، وتشويه صورة الفلسطيني بشكل عام، والمقاومة الفلسطينية على وجه الخصوص.. وكان لافتا أيضا الاستفادة من المنصات الاجتماعية في تحقيق الانتشار الفيروسي الواسع والسريع لهذه المعلومات، واستغلال الحسابات الوهمية لتحقيق الغايات السابقة.

> **تعامل مدققو المعلومات مع أشكال جديدة من التلاعب الجماعي بالمعلومات خلال الحروب لم يسبق لهم التعامل معها، خصوصا في ظل استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي في توليد المحتوى المضلل، الذي يصعب تفنيده بالأدلة القاطعة مقارنة بالادعاءات الأخرى.**

واعتمدت الدعاية الإسرائيلية والغربية المساندة لها على أربع ركائز أساسية في كي الحقائق وتشويهها أمام العالم؛ ففي أعقاب هجوم المقاومة الفلسطينية على المستوطنات الإسرائيلية المقامة على تخوم قطاع غزة، أطلقت الماكينة الإعلامية الرسمية الإسرائيلية جملة من الاتهامات من دون أدلة شملت اتهام المقاومة بقطع رؤوس الأطفال وحرقهم وقتل النساء واغتصابهن، ومهاجمة مهرجان «سوبر نوفا» الموسيقي وقتل عدد من المشاركين فيه، لدرجة أن الرئيس الأمريكي جو بايدن تبنى المزاعم الإسرائيلية بشأن قطع رؤوس الأطفال من دون أن يرى دليلا واحدا، بل وكرر ذِكْر تلك المزاعم رغم تراجع البيت الأبيض عنها.

دفع ذلك الحكومة الإسرائيلية إلى اللجوء للذكاء الاصطناعي لتدعيم مزاعمها، من خلال التلاعب بصورة لكلب في عيادة طب بيطري وتحويله إلى طفل متفحم ادعى رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو أنها لطفل إسرائيلي أحرقته المقاومة في غلاف غزة، وفق ما كشفه الصحفي الأميركي جاكسون هينكل.

كذلك سعت الحكومة الإسرائيلية وعلى لسان وزرائها ومتحدثيها منذ اللحظة الأولى إلى شيطنة الفلسطينيين والمقاومة الفلسطينية، عبر تأطيرهم بالنازية وتنظيم الدولة «داعش» وتجريدهم من إنسانيتهم بوصفهم «حيوانات بشرية»، وكان لا بد لتحقيق هذا الهدف من التلاعب بالحقائق والمعلومات بشكل رسمي وغير رسمي من خلال جيشها الإلكتروني.

ومع اشتداد آلة الحرب الإسرائيلية على غزة، وتحول الرأي العام العالمي لصالح الفلسطينيين، أطلقت حملات تضليل إسرائيلية وغربية أخرى تحت عنوان «باليوود - Palywood» و«غزة - وود GazaWood» تشكك بمعاناة الفلسطينيين، وتنكر الجرائم المرتكبة بحقهم.. وفي سياق هذه الحملات جرت الاستعانة بصور وفيديوهات قديمة، وأخرى غير مرتبطة بالحرب على غزة من أجل التشكيك بالجرائم الإسرائيلية المرتكبة بحق الفلسطينيين، ومنها التنصل من مجزرة مستشفى المعمداني عبر الادعاء بأن الانفجار مصدره صواريخ المقاومة الفلسطينية، وقد عُزّز الادعاء بفيديوهات قديمة

«منذ اللحظة الأولى لطوفان الأقصى أدركت إسرائيل أهمية الحرب الإعلامية بوصفها وسيلة لاستمالة الرأي العام العالمي، واستدرار التعاطف معها» (شترستوك).

«سعت الحكومة الإسرائيلية وعلى لسان وزرائها ومتحدثيها منذ اللحظة الأولى إلى شيطنة الفلسطينيين والمقاومة الفلسطينية، عبر تأطيرهم بالنازية وتنظيم الدولة «داعش»» (غيتي).

من جولات قتال سابقة تخللها إطلاق غير ناجح لصواريخ المقاومة من قطاع غزة.

أما الركيزة الثالثة في حملة التضليل الإسرائيلية فتمثلت في إنكار الحقائق، ومن الأمثلة على ذلك نفي الخارجية الإسرائيلية استخدام الفسفور الأبيض المحرم دوليا في قصف الاحتلال لغزة، رغم وجود عدد من الفيديوهات التي تثبت عكس ذلك.

بينما تستند الركيزة الرابعة على مهاجمة الناشطين داعمي القضية الفلسطينية من خلال التلاعب بمنشوراتهم وصورهم الداعمة لفلسطين، والمطالبة بوقف الحرب على غزة، ونذكر منها التلاعب بصورة للناشطة السويدية غريتا تونبرغ، رفعت خلالها شعارات تضامنية مع فلسطين، بتغيير الكتابة الواردة في الصورة الأصلية واستبدالها بعبارة تُظهر تحريضها على قتل اليهود وربطها بـ «داعش».
إلى جانب حملات التضليل على منصات التواصل الاجتماعي شابت الرواية الإسرائيلية الرسمية ادعاءات كاذبة ومضللة، ومنها الادعاءات الخاصة بالمرافق الطبية الفلسطينية في غزة، بزعم وجود أنفاق ومراكز قيادة أسفل مجمع الشفاء الطبي، ونفق آخر أسفل مستشفى الشيخ حمد للتأهيل والأطراف الصناعية، ليتبين لاحقا عدم صحة الادعاءات، لكنها منحت غطاء لجيش الاحتلال لمهاجمة المستشفيات وإخراجها بشكل كلي وجزئي من الخدمة..

وأمام حملات التضليل واضطراب المعلومات التي شابت الحرب على غزة بذلت منصات تدقيق المعلومات جهدا مضاعفا لتفنيد التضليل وتدقيق الحقائق، وقد أسست الشبكة العربية لمدققي المعلومات تحالفا من أجل تدقيق المعلومات المتعلقة بفلسطين ضم 8 مؤسسات تدقيق عربية وفلسطينية، تعاونت فيما بينها وأنجزت نحو 880 تقريرا عن معلومات مضللة وخاطئة ارتبطت بمجريات الحرب في غزة، وفق قاعدة بيانات الشبكة العربية حول المعلومات المضللة والخاطئة المرتبطة بغزة، التي رُصِدَت حتى فبراير/ شباط الماضي.

وشكلت الادعاءات باللغة العربية التي رُصِدَت من قبل المنصات خلال هذه الفترة ما نسبته 54٪، بينما بلغت نسبة الادعاءات باللغة الإنجليزية 28٪، أما الادعاءات بلغات أخرى (وتشمل العبرية، والهندية، والفرنسية، والألمانية، واليابانية، واليونانية، والفارسية، والإسبانية، والتركية، ولغات أخرى) فقد بلغت نسبتها 18٪ من إجمالي الادعاءات المرصودة

مع اشتداد آلة الحرب الإسرائيلية على غزة، وتحول الرأي العالمي لصالح الفلسطينيين، أُطلقت حملات تضليل إسرائيلية وغربية أخرى تحت عنوان «باليوود - Palywood» و«غزة وود - GazaWood» تشكك بمعاناة الفلسطينيين، وتنكر الجرائم المرتكبة بحقهم.

في فلسطين بذل المرصد الفلسطيني لتدقيق المعلومات «تحقق» -وهو منصة فلسطينية تأسست عام 2015 وتطورت عام 2020- جهدا كبيرا إلى جانب منصات التدقيق الفلسطينية والعربية الأخرى في التصدي للمعلومات المضللة والخاطئة التي ارتبطت بشكل مباشر بالحرب الإسرائيلية على غزة.. وقد أعد المرصد 236 تقريرا عن مختلف الادعاءات التي ارتبطت بشكل مباشر بالحرب، ومنها تقارير باللغة الإنجليزية عن ادعاءات كان مصدرها المنصات العبرية والغربية ضمن حملتي «باليوود - Palywood» و«غزة وود - GazaWood».

وكان لافتا في تجربة المرصد الفلسطيني التفاعل الخاطئ من قبل المستخدمين الفلسطينيين والناشطين العرب مع عملية «طوفان الأقصى» عبر تضخيم القدرات العسكرية للمقاومة الفلسطينية من خلال الاستعانة بفيديوهات ألعاب الفيديو، وربط فيديوهات وثقت خلال الحرب الروسية - الأوكرانية بالمواجهات بين المقاومة وجيش الاحتلال.. وخلال الحرب انصب التفاعل الخاطئ على صور الضحايا وفيديوهاتهم، وذلك من خلال ربط صور وفيديوهات لنزاعات سابقة في العراق وسوريا أو حتى من حروب غزة السابقة بالحرب الحالية، وقد جرى استغلال هذا التفاعل من قبل الحملات المضادة في التشكيك بالرواية الفلسطينية وضرب مصداقيتها، خصوصا فيما يتعلق بالضحايا المدنيين ومعاناة الفلسطينيين في غزة

لقد واجه مدققو المعلومات صعوبات جمة في تدقيق المعلومات الخاطئة والمضللة خلال الحرب، وتمثلت التحديات بصعوبة الوصول إلى المصادر الأولية في غزة نتيجة انقطاع الكهرباء والاتصالات، والمحاذير المترتبة عن التحقق من ادعاءات متعلقة بأحزاب وحركات يصنفها الاحتلال بجهات «معادية»، ومن ثَمّ فقد يعرض ذلك مدققي المعلومات للملاحقة والاعتقال.

شكلت الادعاءات باللغة العربية التي رُصِدَت من قبل المنصات خلال هذه الفترة ما نسبته 54٪، بينما بلغت نسبة الادعاءات باللغة الإنجليزية 28٪.

يضاف إلى ذلك الرقابة العسكرية التي يفرضها جيش الاحتلال على النشر فيما يتعلق بمجريات الحرب في غزة، مما صعب عملية التحقق من الادعاءات التي ساقها الاحتلال في أعقاب عملية «طوفان الأقصى» وتُرِكت من دون تحقق أو توضيح.

رغم تجلي الحقيقة بشأن كثير من الادعاءات الإسرائيلية المتعلقة بالأحداث التي شهدتها مستوطنات غلاف غزة ومن مؤسسات صحفية دولية وعبرية ومنها صحيفة لوموند الفرنسيّة، وصحيفة هآرتس العبرية، اللتان دحضتا مزاعم الاحتلال بشأن قطع رؤوس الأطفال واغتصاب النساء وقتل المشاركين في حفل «رعيم» الفني، فإنّ آثار الدعاية الإسرائيلية ما تزال بادية في منصات التواصل من خلال مجموعات الضغط والمؤثرين الداعمين لإسرائيل، الذين لا يتوانون عن نشر التضليل بهدف التأثير بالرأي العام الدولي، خصوصا في ظل تصاعد المواقف التي تدين جرائم إسرائيل بحق الفلسطينيين في غزة.

أثبتت التجربة خلال الحرب المستمرة في غزة ضرورة تطوير إستراتيجيات جديدة لمواجهة التضليل تشمل تعزيز التعاون الإقليمي والدولي في التصدي للتضليل خلال الحروب والنزاعات، وبمختلف اللغات، والاستفادة من تقنيات الذكاء الاصطناعي لتحديد المحتوى المضلل بكفاءة أعلى، إلى جانب تعزيز الدور التوعوي بمخاطر نشر المعلومات المضللة والخاطئة حتى في إطار الدعم والتعاطف، لما لذلك من آثار كبيرة على مصداقية الرواية الفلسطينية.

«رافق حملات التضليل على منصات التواصل الاجتماعي الرواية الإسرائيلية الرسمية الادعاءات بوجود أنفاق ومراكز قيادة داخل المجمعات الطبية تمهيداً لتدميرها» (رويترز).

الاستشراق والإمبريالية وجذور التحيّز في التغطية الغربية لفلسطين

جوزيف ضاهر

تقترن تحيزات وسائل الإعلام الغربية الكبرى ودفاعها عن السردية الإسرائيلية بالاستشراق والعنصرية والإمبريالية، بما يضمن مصالح النخب السياسية والاقتصادية الحاكمة في الغرب، بيد أنّها تواجه تحديًا من الحركات العالمية الساعية لإبراز حقائق الصراع، والإعراب عن التضامن مع الفلسطينيين.

في صبيحة 7 أكتوبر عام 2023، أفضت هجمات المقاومة الفلسطينية، التي خلّفت 1,139 قتيلًا، إلى تجدد العمليات العسكرية الإسرائيلية وتصعيدها على نحو غير مسبوق، بيد أنّ التغطية الإعلامية الغربية أمعنت في التركيز على «المعاناة» الإسرائيلية وحق إسرائيل -وهي دولة احتلال- في «الدفاع عن النفس»، وغضّت عديد وسائل الإعلام الغربية السائدة الطرف عن السياق المهم للعمليات وتفاصيل الضحايا، ومنها على سبيل المثال لا الحصر مقتل مدنيين إسرائيليين بسبب القصف الإسرائيلي على المباني التي احتُجزوا فيها.. وتفشّت في وسائل الإعلام مزاعم عن قطع رؤوس 40 طفلا إسرائيليا قبل دحضها لاحقا، وفي ذلك برهان جلي على انتشار المعلومات غير المؤكدة من مصادر إسرائيلية بلا حسيب ولا رقيب.

تبين الدراسات كذلك مدى التحيز الإعلامي الممنهج في الدول الغربية بحق الفلسطينيين؛ ففي حين يتواصل العنف الإسرائيلي في غزة بلا هوادة بحق المدنيين وحياتهم، تظل أمامنا أسئلة ملحة عن القوة المفرطة ودور وسائل الإعلام في صياغة الخطاب السائد؛ لذا تحاول هذه المقالة تقديم نظرة تأصيلية لجذور التحيز المرصود في وسائل الإعلام الغربية في تغطية الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة، وتأثيرها على آفاق إنهاء العدوان وحل الصراع وحصول الفلسطينيين على حقوقهم

تغطية مبتورة

ما انفكت حملة الإبادة الجماعية التي يشنها جيش الاحتلال الإسرائيلي مستمرةً في قطاع غزة؛ فقد تعرض ما يربو على مليوني نسمة -أي

أكثر من 90٪ من الغزيّين- إلى التشريد أو القتل جراء القصف والعدوان المتواصلين.. وأوردت الأرقام الرسمية مقتل أكثر من 32 ألف فلسطيني (تجاوزت الحصيلة حتى الآن 35 ألفا) في الأشهر الخمسة الأولى من الحرب، منهم 12,300 طفل، وهو رقم يفوق عدد الأطفالً القتلى في كل الحروب العالمية طوال السنين الأربع الماضية.
لا ريب أنّ هذا العدوان المتواصل يعد نكبة جديدة أو كارثة مشابهة لما حدث خلال النكبة الأولى عام 1948؛ إذ أُجبِر 700 ألف فلسطيني على هجر منازلهم، وأُكرِهوا على مغادرة أرضهم ليصبحوا لاجئين.

تُمعن وسائل الإعلام الغربية في تركيزها على «المعاناة الإسرائيلية» و«الدفاع عن النفس» عقب هجمات حماس صبيحة 7 أكتوبر عام 2023، التي أفضت إلى 1,139 قتيلا وفقا لبيانات السلطات الإسرائيلية.. ويتوزع هذا الرقم على النحو الآتي: 695 مدنيا إسرائيليا، و373 عنصرا أمنيا، و71 أجنبيا.. ويجدر التنويه إلى اشتمال ذلك الرقم على مدنيين إسرائيليين قتلهم جيش الاحتلال، ولا سيما عندما قصفت دباباته المنازل التي احتُجز فيها أولئك الأشخاص؛ فهذا تفصيلٌ جوهري قلّما ورد في تغطية وسائل الإعلام الغربية.. وباشرت مقالات صحفية حديثة دحض الادعاءات الزائفة التي نشرتها وسائل إعلامية إسرائيلية من دون سابق تحقق، ثم تلقّفها الغرب مكررا إياها؛ فقد تبين، مثلا، زيف التقارير الأولية التي زعمت قطع رؤوس 40 طفلا إسرائيليا، وهي مزاعم باطلة سرعان ما روجتها وسائل الإعلام الغربية والساسة الغربيون، ومنهم الرئيس الأمريكي جون بايدن.. كذلك أبانت دراسات كثيرة تحيزا إعلاميا ممنهجا بحق الفلسطينيين في شتى الدول الغربية.

من جهة أخرى، باتت ممارسات الصحافة البديلة من ميدان الحدث شبه مستحيلة؛ إذ دأب جيش الاحتلال الإسرائيلي على استهداف الصحفيين الفلسطينيين في قطاع غزة، وقتل أكثر من 140 صحفيا فلسطينيا منذ 7 أكتوبر حتى الآن.

> **بات نزع الأنسنة عن الفلسطينيين ملازمًا للاستعراض الإعلامي للحرب، وطغى الاستخفاف من آمالهم وفاعليتهم السياسية في أحيان كثيرة.**

تعامت وسائل الإعلام الكبرى عن واقع حرب الإبادة الجماعية الإسرائيلية المتواصلة بحق

«تنامت لدى المسؤولين الإسرائيليين والغربيين ووسائل الإعلام الغربية الكبرى المقارنات بين داعش وحماس، كما حدث حين وصف لويد أوستن، وزير الدفاع الأمريكي، حماس بقوله إنّها «أسوأ من داعش»» (تصميم: إرمينا تاكينوفا).

قطاع غزة، وبات نزع الأنسنة عن الفلسطينيين ملازمًا للاستعراض الإعلامي للحرب، وطغى الاستخفاف من آمالهم وفاعليتهم السياسية في أحيان كثيرة.. ولو راجعنا التغطيات الإعلامية الغربية الكبرى، لرأينا السردية قاصرةً في تطرقها للأحداث على يوم 7 أكتوبر فقط، من دون توفير سياق واف أو سعي لتفسير تأزم الوضع على مدار السنوات الماضية.. والملحوظ كذلك أن آراء الفلسطينيين أنفسهم عن السياق التاريخي قوبلت غالبا بالمنع أو الطمس، ولا سيما حين يسعون لإبراز أسباب تلك الأحداث، وهو ما أكده الناشط الصحفي الفلسطيني معتز عزايزة، الذي نشر تغريدة حديثة بخصوص تساؤلات وسائل الإعلام الغربية الكبرى عن 7 أكتوبر، فقال فيها: «أجبت عن السؤال مرات عديدة لكنهم أهملوا الإجابة ولم ينشروها قط؛ فهم سجلوا مقابلتي واقتصوا منها كلاما ملائما لأجندتهم».

أسهمت الطبيعة المتأصلة للدولة الإسرائيلية بوصفها كيانا استعماريا استيطانيا، وسياساتها على مر السنين، في استحداث الأحوال والظروف المسببة لأحداث 7 أكتوبر وما أعقبها، وهو الحال غالبا لدى القوى الاستعمارية وقوى الاحتلال على مر التاريخ.. لكن ثمة استسهال مفرط في تصوير 7 أكتوبر على أنّه «هجوم إرهابي» من دون توفير السياق التاريخي اللازم في حالات كهذه؛ فتُوصف الأفعال الإسرائيلية بحق غزة بأنها «دفاع عن النفس»، وتُعامل جرائمها بحق الفلسطينيين بقلّة اكتراث عامة.

لماذا تصر معظم وسائل الإعلام الغربية الكبرى على تبني السردية الإسرائيلية وإقرارها والدفاع عنها؟ ولم الميل نحو تجريد الفلسطينيين من إنسانيتهم والإفراط في لومهم على مسار الأحداث الراهنة؟ ما مصلحة المؤسسات الإعلامية الغربية الكبرى من مواصلة هذا النوع من التغطية؟

ترجع إجابات الأسئلة السابقة إلى الاستشراق والعنصرية والإمبريالية؛ فهي جميعها مترابطة، والصور والسرديات التي تروجها تلك الوسائل الإعلامية ليست بمعزل حقا عن المصالح الجيوسياسية والاقتصادية للنخب الحاكمة في الدول الغربية.. فلا بدّ من إدراك أدقّ وأكثر اعتدالا -يوفر مساحة مناسبة للصوت الفلسطيني- لفهم أصول هذا الصراع المعقد والطويل، وتغطيته تغطية إعلامية سليمة.

الوجه المتطور للاستشراق: مقاصد وغايات ثابتة

الاستشراق أيديولوجية جوهرية متأصلة في الفلسفة المثالية والمفاهيم الهيغلية التي تنص على أنّ مصير الناس مرهون

«لا يعد الاستشراق ظاهرة بالغة الحداثة، وإنما وليد نزعة أوروبية قديمة وراسخة تسعى في بعض تمظهراتها إلى تشويه الحقائق بشأن الثقافات والشعوب واللغات الأخرى، وتكريس الذات الغربية المهيمنة» (تصميم: إرمينا تاكينوفا)

بثقافاتهم ودياناتهم القديمة.. وأبصر مصطلح «المستشرق» النور عام 1779 في اللغة الإنجليزية، وعام 1799 في اللغة الفرنسية، وعني في بادئ الأمر بالدراسة اللغوية، ثم سرعان ما اقترن بالتوسعات الاستعمارية الإمبريالية الغربية في الشرق وأماكن أخرى من العالم.. وما لبثت القوى الأوروبية أن وسعت نطاق تدخلاتها وغزواتها وهيمنتها على شؤون الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا في القرن التاسع عشر، فبرزت خطابات تصف الإمبراطورية العثمانية بأنها «رجل أوروبا المريض»، وتَسِمُ العرب بمصطلحات مثل «الإنسان الإسلامي».. وما تزال فكرة الجوهر العربي/الإسلامي حاضرة في التحليل التقليدي والاستشراقي الجديد.

ثمة استسهال مفرط في تصوير 7 أكتوبر على أنّه «هجوم إرهابي» من دون توفير السياق التاريخي اللازم في حالات كهذه؛ فتُوصف الأفعال الإسرائيلية بحق غزة بأنها «دفاع عن النفس»، وتُعامل جرائمها بحق الفلسطينيين بقلّة اكتراث عامة.

شهدت تلك المدة الزمنية تفوقا جليا لأوروبا على الإمبراطورية العثمانية والشرق عامة، سواء في النواحي الاقتصادية أو التقنية أو العسكرية أو السياسية أو الثقافية.. واقترن هذا التفوق بالدين المسيحي (بحسب فهمه الغربي وممارساته الغربية) وانتكاسات العالم الإسلامي مع الإسلام.. وهكذا ظهرت المسيحية في مظهر المُجاري للتقدم، أما الإسلام فألبِسَ ثوب الرجعية ومناهضة التقدم؛ لهذا دُعيت أي مقاومة للنفوذ الأوروبي بأنها تعصب ديني ونبذ للحضارة.

لم يخلُ المشهد السياسي الغربي ووسائل الإعلام الغربية الكبرى من خطاب كهذا، وإنما تفاوتت حدته مع الزمن، ومن الأمثلة الجلية لهذا المنظور الاستشراقي خطابُ جوزيب بوريل، نائب رئيس المفوضية الأوروبية والممثل السامي للاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية، الذي ألقاه في أكتوبر 2002 في الأكاديمية الدبلوماسية الأوروبية الجديدة في بروج؛ فخطاب بوريل يقدم أوروبا على أنها «بستان جميل» تسير فيها الأمور «على خير حال»، وتجمع في ربوعها بين «الحرية السياسية، والازدهار الاقتصادي، والتلاحم الاجتماعي التي حققتها الإنسانية كلها»، ثم ما يلبث أن يجاهر بخشيته من «بقية العالم الشبيه بالغابة، والقادر على التسلط على البستان؛ فالبستانيون مطالبون إذًا بالذهاب إلى الغابة، والأوروبيون مطالبون بالانخراط أكثر في شؤون سكان العالم، وإلا فإنهم سيغزونهم بشتى السبل والوسائل».. ولا ريب أنّ هذا الخطاب يتغاضى عن الصعود المستمر لليمين المتطرف في عموم أوروبا، وتفشي العنصرية والهجمات على الحقوق الديمقراطية والمهاجرين، وهلم جرا.

لا عجب إذًا أن يُوظِّف المسؤولون الإسرائيليون والغربيون ووسائل الإعلام الكبرى مثل هذا الخطاب لتوصيف هجمات حماس في 7 أكتوبر بالبربرية، وتسويغ حرب منظورة في محكمة العدل الدولية بوصفها إبادة جماعية تشنها إسرائيل على سكان قطاع غزة؛ ففي أحد الأمثلة قال كاتب إسرائيلي في صحيفة جيروزاليم بوست: «يوم 7 أكتوبر؛ هزيمة للحضارة الغربية وانتصار للبرابرة.... الغرب الحديث في مواجهة الجهاد الإجرامي الدموي».. وفي مثال آخر قالت أورسولا فون دير لاين، رئيسة المفوضية الأوروبية: «إنّه شرّ قديم، وهو تذكرة لنا بالماضي المظلم وصدمة لنا جميعا حتى الصميم.. يحق لإسرائيل الدفاع عن نفسها بمواجهة هذه الهجمات الشنيعة».

في خضمّ هذه الإستراتيجية تنامت لدى المسؤولين الإسرائيليين والغربيين ووسائل الإعلام الغربية الكبرى المقارنات بين داعش وحماس، كما حدث حين وصف لويد أوستن، وزير الدفاع الأمريكي، حماس بقوله إنّها «أسوأ من داعش».. ولا شك في أنّ مساعي إسرائيل والحكومات الغربية لتشبيه حماس، والفلسطينيين عامة، بالإرهابيين والمنظمات الجهادية ليست حديثة العهد؛ ففي أعقاب هجمات 11 سبتمبر/ أيلول 2001، وصفت الطبقة الحاكمة الإسرائيلية حربها على الفلسطينيين خلال الانتفاضة الثانية بأنها «حرب على الإرهاب»، وتغاضى هذا التوصيف عن إدانة السلطة الفلسطينية وحماس لأفعال تنظيم القاعدة.. كذلك دُعيت عمليات حماس التفجيرية في القدس المحتلة وأماكن أخرى في فلسطين التاريخية

بأنها من «أوجه الإرهاب الإسلامي العالمي».. وسبق ذلك كلام المسؤولين الإسرائيليين ومقارنتهم بين منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها وبين النازيين.

يبدو هذا المنظور العنصري لدى وسائل الإعلام الغربية الكبرى متأصلا في النظرة الاستشراقية للعالم والمنطقة بخاصة، بل ومتجذرة في الديناميكيات السياسية الحديثة، ومنها الإمبريالية والاستعمار، والصراع الطبقي والجندر والعنصرية

تدأب إسرائيل والمسؤولون الغربيون على الخلط بين حماس والجماعات الجهادية مثل داعش والقاعدة؛ فهذا جزء من إستراتيجية أشمل تعوّل على الإسلاموفوبيا لتسويغ الحرب على الإرهاب.. وفي مطلع العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أيدت إدارة بوش حق إسرائيل في الدفاع عن النفس بمواجهة «الإرهاب الإسلامي»، وهو تصرف مشابه لأفعال الإدارة الأمريكية الحالية والدول الغربية.

من هذا المنطق تكون هزيمة حماس والقضاء عليها مسوغًا للحرب الإسرائيلية على قطاع غزة، كما أبان الصحفي في صحيفة نيويورك تايمز بقوله: «حماس هي السبب الأساسي لمأساة قطاع غزة، وعليها وحدها وزر المعاناة التي ألحقتها بإسرائيل، واستجلبتها عمدا بحق الفلسطينيين؛ فالطريقة المثلى لإيقاف المعاناة هي اقتلاع المسبب لا كفّ يد المقتلع».. لهذا، يَسعُ المسؤولين الإسرائيليين والمعلقين الصحفيين المؤيدين لإسرائيل أن يزعموا أن أفعالهم دفاع عن النفس، بل وأن يدّعوا أيضا أنها لمساعدة الفلسطينيين باقتراف إبادة جماعية بحقهم.

يبدو هذا المنظور العنصري لدى وسائل الإعلام الغربية الكبرى متأصلا في النظرة الاستشراقية للعالم والمنطقة بخاصة، بل ومتجذرة في الديناميكيات السياسية الحديثة، ومنها الإمبريالية والاستعمار، والصراع الطبقي والجندر والعنصرية.. ويأتي هذا الفهم مغايرا لفهم إدوارد سعيد، المفكر الفلسطيني الشهير مؤلف كتاب الاستشراق؛ فسعيد لم ينتقد المثالية التاريخية بوصفها القالب الأساسي للجوهرانية الثقافية غير التاريخية في كتابة الاستشراق، وثمة ضرب من التتابع التاريخي المتسق في انتقاداته للاستشراق منذ عهد اليونان القديمة

«لو راجعنا التغطيات الإعلامية الغربية الكبرى، لرأينا السردية قاصرةً في تطرقها للأحداث على يوم 7 أكتوبر فقط، من دون توفير سياق واف أو سعي لتفسير تأزم الوضع على مدار السنوات الماضية». (تصميم: إرمينا تاكينوفا)

ALJAZEERA

حتى وقتنا الحالي، وما من مراعاة للديناميكيات الطبقية، وديناميكيات الجندر، وما من ذكر للتاريخ، والمقاومة، ومشاريع تحرير الإنسان بحسب كلام إعجاز أحمد.

لذلك لا يعد الاستشراق ظاهرة بالغة الحداثة، وإنما وليد نزعة أوروبية قديمة وراسخة تسعى في بعض تمظهراتها إلى تشويه الحقائق بشأن الثقافات والشعوب واللغات الأخرى، وتكريس الذات الغربية المهيمنة.. وعلاوة على الانتقادات البناءة لمؤلفين مشرقيين نقدوا الاستشراق مثل صادق جلال العظم، ومهدي عامل، وسمير أمين، وإعجاز أحمد، فإنه يُخشى في تناول إدوارد سعيد للاستشراق من مغبة الانزلاق إلى شكل من «الاستشراق المعكوس» كما أوضح العظم.

في الواقع، كيف عسانا نفسر دفاع وسائل الإعلام الغربية عن سياسات إسرائيل المدمرة لولا أنها تصب في حماية مصالحها السياسية؟ حسنا يجري ذلك برؤية الأمور من منظور استشراقي.

إسرائيل عنصر مهم للنخب الحاكمة الغربية

ضمن إطار استشراقي نموذجي، وطوال عقود من الزمن، قدّم الحلفاء الغربيون ووسائل الإعلام الكبرى إسرائيل على أنها: «نبراس الديمقراطية والتقدم في محيط معادٍ يقطنه برابرة همجيون».

وروّج لهذه الدعاية قادةُ الحركة الصهيونية قبل إنشاء إسرائيل، ولا تزال هذه الدعاية مستمرة حتى يومنا الحالي على لسان المسؤولين الإسرائيليين.. ولو عدنا بالزمن إلى قبل النكبة وقيام إسرائيل عام 1948، لوجدنا تيودور هرتزل، المنظر الأيديولوجي للحركة الصهيونية، يصف الدولة اليهودية المستقبلية بأنّها ستكون «طليعة الحضارة بمواجهة البربرية الهمجية»، وهو بذلك يدعو لتمكين سكان أوروبيين بمعظمهم، وأصلهم يهودي، على أرض غالبية سكانها من العرب، وهي فلسطين في هذه الحالة.

في الوقت الراهن يتداول المسؤولون الإسرائيليون هذا الخطاب؛ فرئيس الوزراء نتنياهو صرّح في خطاباته عقب 7 أكتوبر بالآتي: «لا تخوض إسرائيل حربها فحسب، وإنما تخوض حرب الإنسانية بمواجهة البرابرة»، و«حلفاؤنا الغربيون وشركاؤنا في العالم العربي يدركون تماماً أنّهم الضحايا اللاحقون في حملة القتل والغزو لمحور الشر إن أخفقنا في الانتصار».. كذلك ادعى إسحاق هرتزوغ، الرئيس الإسرائيلي، أن غاية الحرب على غزة هي «إنقاذ الحضارة الغربية»، وأن إسرائيل «تعرضت لهجوم من جماعة جهادية»، ولولاها «لكانت أوروبا هدفا تاليا تردفها الولايات المتحدة».

دعم المسؤولون الغربيون ووسائل الإعلام الكبرى هذه الدعاية؛ إذ خلا كلام هذه الجهات الفاعلة تقريبا من عبارة «حرب إبادة جماعية» أو «إبادة جماعية»، وهم كذلك استنكروها ورفضوها حينما ذكرها منتقدو إسرائيل.. ويسعنا القول إنّ هذه الحصانة المعطاة لإسرائيل ليست وليدة 7 أكتوبر، وإنما هي فعل متواصل طوال عقود من السنين، وحتى الجماعات والمنظمات الكبرى باتت الآن تدرك الطبيعة العنيفة والرجعية للدولة الإسرائيلية؛ فمنظمة حقوق الإنسان و«بتسيلم» الإسرائيلية، مثلا، أدانتا الاستيلاء الإسرائيلي المتواصل على الأراضي الفلسطينية، ووثقتا الانتهاكات الإسرائيلية للقوانين الدولية ودعمها أكثر من 700 ألف مستوطن لبناء مستوطنات في الأراضي المحتلة في الضفة الغربية والقدس الشرقية.. وتوصلت تلك المنظمات إلى أن إسرائيل دولة فصل عنصري؛ إذ تمنح اليهود امتيازات خاصة، وتعامل الفلسطينيين على أنهم مواطنون من درجة أدنى.

يبرهن هذا الأمر مرة ثانية على زيف مبادئ الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية وادعاءاتها عن الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان؛ فهي ليست إلا دعاية خطابية هدفها إخفاء سياساتها الرامية إلى حماية مصالحها السياسية والاقتصادية.. وفي هذا السياق صَدَق كلام القس الفلسطيني منذر إسحاق، من بيت لحم، حين قال: «أقول لأصدقائنا الأوروبيين: لا تكرروا على مسامعنا مجددا محاضراتكم عن حقوق الإنسان أو القانون الدولي».

سعت دول أوروبية كثيرة بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية للجمع بين معاداة السامية ومعاداة الصهيونية، فهي بذلك تهدف إلى تجريم التضامن مع النضال

الفلسطيني، وتجريم حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS).. ولا بد من إدراك المقاصد والغايات من هذه الأفعال الرامية لتحقيق هدف أكبر لدى النخب الغربية، واستهداف السياسات التقدمية واليسارية كما حصل في المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، فضلا عن محاولات تقييد الحقوق الديمقراطية في تلك الدول.

في هذا السياق لا تتصدى

> لا يعد الاستشراق ظاهرة بالغة الحداثة، وإنما وليد نزعة أوروبية قديمة وراسخة تسعى في بعض تمظهراتها إلى تشويه الحقائق بشأن الثقافات والشعوب واللغات الأخرى، وتكريس الذات الغربية المهيمنة.

نظريات المؤامرة الزاعمة بسيطرة اليهود على العالم الآراء الاستشراقية، بل إنها تعززها وترسخها في حقيقة الأمر؛ فثمة أوجه مختلفة للعنصرية يغذي بعضها بعضا كما قال المفكر المناهض للاستعمار فرانز فانون: «عندما تسمع مذمات عن اليهود، فأحسن الإصغاء لأنّ الناس يرمونك بكلامهم».. كذلك تخفف هذه الادعاءات من مسؤولية النخب الغربية عن المأساة الفلسطينية، من دون أن يغيب عن بالنا أن الدعم الغربي لإسرائيل لم يمنع معاداة السامية المستمرة من النخب الغربية؛ فمنذ اللورد بلفور حتى الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب، دعموا جميعهم السياسات أو الديناميكيات المعادية للسامية؛ فصحيح أنّ بلفور مشهور بإرساله الرسالة المتضمنة وعده المعروف: «تنظر حكومة صاحبة الجلالة بعين العطف إلى إقامة وطني قومي للشعب اليهودي في فلسطين»، غير أنّه من مروجي قانون الأجانب عام 1905 وداعميه، الذي أغلق الحدود البريطانية بوجه المهاجرين اليهود الفارين من المجازر الروسية.. أما أنصار ترامب فذهبوا في مسيرة في شارلوتسفيل عام 2017، وهتفوا قائلين إنّ «اليهود لن يحلوا محلنا».. والأمر ذاته حدث في فرنسا عندما وجهت الانتقادات إلى إيمانويل ماكرون لتكريمه المارشال بيتان، أو تسليط الضوء على المنظر المعادي للسامية تشارلز موراس.

نضال مشترك من الأسفل

تواجه النظرات الاستشراقية والعنصرية عن فلسطين والفلسطينيين، وآخرين من غير البيض، تحديا مرتبطا بالنضال المشترك المنطلق «من الأسفل»؛ أي من القواعد المدنية والشعبية في أرجاء العالم، ولا سيما في المجتمعات الغربية حين تكون المؤسسات الحاكمة منبعَ تلك الأفكار وأصلها.. وكما أسلفنا القول، للقضية الفلسطينية تأثيرات بالغة على الديناميكيات السياسية خارج منطقة الشرق الأوسط.

برزت الانتقادات الأولى للاستشراق والدراسات الاستشراقية في الغرب خلال مرحلة نهاية الاستعمار عقب الحرب العالمية الثانية، وقدمها مؤلفون ومفكرون من البلدان المُستَعمَرة ممن عاشوا غالبا في الدول الغربية، مثل أنور عبد الملك وإدوارد سعيد.. وبدأت الطعونات بالدراسات والتوجهات الاستشراقية في الأوساط الأكاديمية عقب الحرب العالمية الأولى، وأطلقتها الثورة الروسية، لكنها تعززت بفضل المقاومة المتنامية للحركات المناهضة للاستعمار والإمبريالية الغربية في الشرق؛ بدءا من آسيا ومرورا بالشرق الأوسط وانتهاء بأفريقيا.. وأسهمت الحركات النسوية والمناهضة للعنصرية في التصدي لتلك الأفكار في الدول الغربية.

في الوقت الراهن تدور نضالات في شتى المجتمعات والأوساط الأكاديمية وأماكن العمل ووسائل الإعلام البديلة وغيرها، وهي تبذل جهودها للضغط على السلطات والحكومات لإيقاف حرب الإبادة الجماعية الإسرائيلية المتواصلة بحق الفلسطينيين في قطاع غزة، وإبراز السياق التاريخي للقضية الفلسطينية، وفضح الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية لإسرائيل ونظام حكمها العنصري، والتضامن مع الفلسطينيين؛ فهذا كله يتحدى المنظور الاستشراقي لوسائل الإعلام الغربية الكبرى، الذي يؤدي دور الدرع (من بين دروع أخرى) لحماية مصالح النخبة الحاكمة الغربية.

«تـدور الآن نضـالات شـتى المجتمعـات والأوسـاط الأكاديميـة وأماكـن العمـل ووسـائل الإعلام البديلـة يتحـدى المنظـور الاستشـراقي لوسـائل الإعلام الغربيـة الكبـرى، الـذي يـؤدي دور الـدرع (مـن بيـن دروع أخـرى) لحمايـة مصالـح النخبـة الحاكمـة الغربيـة». (تصويـر: كيتليـن أوكـس - رويتـرز)

عندما نَحَرت إسرائيل الحرية الصحفية على أعتاب غزة

وفاء أبو شقرا

بينما تحتفل الأمم المتحدة يوم 3 ماي من كل سنة باليوم العالمي لحرية الصحافة، يواصل الاحتلال الإسرائيلي قتل الصحفيين في فلسطين دون وجود آلية للمحاسبة ومنع الإفلات من العقاب. وأمام صمت الكثير من المنظمات الدولية وتعاملها بازدواجية معايير، انهارت قيمة حرية الصحافة في تغطية حرب الإبادة الجماعية.

«دشّنت إسرائيل، في غزة، عهدا جديدا ومفهوما مغايرا لإبادة الشعوب، أبرز مقوّماته أنّه يجري، بمباركة المواثيق الدولية وغطرسة المؤسسات الأممية وعجز نظام عالمي (مصطنع) عن إحقاق الحق وإحلال السلام» (تصوير: أحمد حسب الله - غيتي).

لا يزال صوت أستاذتي، التي كانت تدرسنا في جامعة «السوربون» مقرَّر «وسائل الإعلام والمجتمع»، يرن في أذني؛ أتذكّرها، عندما كانت تُخفض نبرتها لتستخلص، أمامنا، ما توصلت إليه من قناعة خلال مسيرتها الأكاديمية الطويلة: «الموضوعية في الصحافة هي أسطورة.. ولا تصدّقوا من يقول لكم عكس ذلك».. و«ماذا عن الحرية في الصحافة؟» سألتُها مستطردةً على «مُسلَّمتها»، فأجابت بأسف: «C'est du pareil au même»، أي: الأمران سيّان.. فوجئتُ، بالتأكيد، بما عبّرت عنه أستاذتي التي تنتمي إلى مجتمع، كنّا نحسب أنّ صحافته وصحفيّيه يعيشون في نعيم لا يتوفر لنا، نحن صحفيي البلدان المُسمّاة نامية.. لكنني اليوم، فقط، فهمتُ ما كانت تعنيه أستاذتي الفرنسية، التي لا أعرف ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة، وتشهد على ما يرتكبه إعلام بلادها، والإعلام الغربي عموما، من فظاعات في تغطية حرب الإبادة التي يشنّها الاحتلال الإسرائيلي على الفلسطينيين في قطاع غزة(1).

«لا يزال صوت أستاذتي، التي كانت تدرسنا في جامعة «السوربون» مقرَّر «وسائل الإعلام والمجتمع»، يرن في أذني؛ أتذكّرها، عندما كانت تُخفض نبرتها لتستخلص، أمامنا، ما توصلت إليه خلال مسيرتها الأكاديمية الطويلة: «الموضوعية في الصحافة هي أسطورة.. ولا تصدّقوا من يقول لكم عكس ذلك».»

لكن، ليس تعاطي الإعلام الغربي مع حرب غزة هو موضوع هذه السطور، بل الحرية الصحفية التي يُحتفى بها في هذه الأيام، بمناسبة اليوم العالمي لحرية الصحافة الذي اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ أكثر من ثلاثة عقود؛ فهي تُحيي، عبره، ذكرى اعتماد إعلان ويندهوك التاريخي الذي جرى تبنيه في مؤتمر للصحفيين الأفارقة في 3 مايو/ أيار 1991، بهدف تطوير صحافة حرة ومستقلة وتعددية.. ومنذ ذلك الوقت، تحوّل هذا الإعلان إلى «أداة» لقياس أحوال الصحافة وتقييمها في 180 دولة في العالم، وبات «3 مايو/ أيار» ذكرى يتجدد فيها، كل عام، التأكيد على المبادئ الأساسية لحرية الصحافة، وحماية وسائل الإعلام من شتّى أنواع الاعتداءات، وتعريف الجماهير بانتهاكات حق الحرية في التعبير، ووجوب ضمان بيئة إعلامية حرة وآمنة للصحفيين.. كذلك أضحى مناسَبةً، تُوجَّه فيها التحية إلى الصحفيين الذين واجهوا (ويواجهون) الموت أو السجن في أثناء ممارسة مهنتهم(2).. وإذا كان الفيلسوف الألماني كارل ماركس يرى أن الإنسان هو أثمن رأسمال في الوجود، فإن القوانين والشرعات الإعلامية الدولية تَعُدّ الحرية الصحفية أهمّ شرط لإعمال حقوق هذا الإنسان.

ماذا تعني حرية الصحافة؟

لقد لخصت المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تعريف هذا المفهوم بالقول إنّ «لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء من دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأي وسيلة ومن دون اعتبار للحدود».. وعليه، ارتكز كل قانون وُضِع بشأن الإعلام وعمله على هذه المادة، التي لم تكن كافية، كما يبدو، لتأمين الحماية والرعاية للحق الطبيعي للكائن البشري في الاتصال والتعبير عن الرأي، ودرء المخاطر عنه وعن مهنة الصحافة والإعلام والقائمين عليها، بل إن الانهيارات في جدار حرية الإعلام مهولة على مستوى العالم (بدرجات متفاوتة طبعا)، وكلّ المواثيق التي سُنَّت، بعدئذ، في إطار تعزيز الحريات الإعلامية، تقف عاجزة عن حماية الصحفيين من الاعتقال والسجن أو فصلهم من المؤسسات التي يعملون فيها(3).

ومع بداية القرن الحالي، يقدّم لنا الواقع، ودوريًا، نماذج صارخة لانتهاك الحريات الإعلامية في العالم كله؛ إذ يشكل الصحفيون، وأينما وُجِدوا، «أهدافا كبيرة القيمة»، وتوثق الكاميرات مشاهد الاعتداءات التي يتعرض لها صحفيو الميدان في المناطق المشتعلة (أو مَن نسميهم «فدائيّي المهنة»).. هم يُقنَصون أو يُحتجَزون أو يُختطَفون من أجل فدية، أو تُنفَّذ فيهم إعدامات علنيّة تبعث برسائل «مختلفة الغايات» إلى الجهات المعنية.. فهذا ما حدث، على سبيل المثال، في لبنان والجزائر والعراق وليبيا واليمن وأفغانستان وأوكرانيا ويوغسلافيا وكل المناطق التي شهدت صراعات وحروبا، ولقد تكشفت صور مفزعة عن تدهور الحريات الإعلامية في ظل أجواء القتل والقمع والفوضى، وهي

أجواء شبيهة وتُذكِّر بتلك التي كانت سائدة قبل ثلاثة قرون في أوروبا.. لكن، كل ما يحصل في المعمورة، في كفة، وما يفعله الصهاينة في فلسطين، وعلى مرأى من العالم أجمع، في كفة أخرى.

لم يشهد التاريخ الحديث أيّ حرب خيضت بهذه الطريقة المميتة للصحفيين، كتلك التي تُخاض، حاليا، على الصحفيين الفلسطينيين وزملائهم ممّن يغطّون المعارك المستمرة في قطاع غزة وجنوب لبنان منذ أكثر من ستة أشهر(4).. لقد كشفت الحرب الراهنة قدرة إسرائيل الفائقة، ليس على الإجرام فحسب، بل على جر الغالبية العظمى من حكومات العالم وسياسيّيه إلى دفن أخلاقهم وضميرهم وإنسانيتهم بأيديهم، تحت سابع أرض.. وإذا كان مفهوما، ربّما، أن يختلف الناس ويتساجلوا بشأن عدالة القضية الفلسطينية أو حق الفلسطينيين في مقاومة المحتل، فمن غير المقبول، على الإطلاق، أن تكون فظاعة ما يحصل أمام أنظارنا من سحق لمقومات وجود الإنسان الفلسطيني موضوعا للسجال والأخذ والرد! والأفظع منه، أن يمتنع «العالم الحر» (تعبير بات مدعاة للسخرية) عن إدانة هذا التدمير والدعوة، أمس قبل اليوم، إلى إيقافه الفوري.

ما تفعله إسرائيل في غزة، لا يتطابق مع أي إستراتيجية عسكرية قرأنا عنها، وتُخاض على أساسها الحروب، الدفاعية منها والهجومية، ولا تشبه حروبها، كذلك، أي نمط من أنماط الحروب التي عرفتها العلوم العسكرية والصراعات المسلحة في التاريخ.. وهذه مسألة متوقعة؛ لأنّ ما ينفذه الصهاينة على الأرض الفلسطينية ليس صراعا عسكريا، إنّما هو إبادة جماعية، تقوم عليها عقيدة إسرائيل العسكرية، ولم يشهدها العالم، على الأرجح، منذ أيام المغول (في القرن الثالث عشر)، أي أولئك الذين تُعرّفهم كتب التاريخ بأنهم «أعظم رعب مَرّ على تاريخ البشرية».

> **لم يشهد التاريخ الحديث أيّ حرب خيضت بهذه الطريقة المميتة للصحفيين، كتلك التي تُخاض، حاليا، على الصحفيين الفلسطينيين وزملائهم ممّن يغطّون المعارك المستمرة في قطاع غزة وجنوب لبنان منذ أكثر من ستة أشهر.**

دشّنت إسرائيل، في غزة، عهدا جديدا ومفهوما مغايرا لإبادة الشعوب، أبرز مقوّماته

«إذا كان الفيلسوف الألماني كارل ماركس يرى أن الإنسان هو أثمن رأسمال في الوجود، فإن القوانين والشرعات الإعلامية الدولية تَعُدّ الحرية الصحفية أهمّ شرط لإعمال حقوق هذا الإنسان» (شترستوك).

«كشفت الحرب الراهنة قدرة إسرائيل الفائقة، ليس على الإجرام فحسب، بل على جر الغالبية العظمى من حكومات العالم وسياسيّيه إلى دفن أخلاقهم وضميرهم وإنسانيتهم بأيديهم» (غيتي).

أنّه يجري، وعلى عكس كل الإبادات الجماعية المعروفة سابقا، بمباركة المواثيق الدولية وغطرسة المؤسسات الأممية وعجز نظام عالمي (مصطنع) عن إحقاق الحق وإحلال السلام.. حطمت إسرائيل رقما قياسيا في عدد الضحايا الفلسطينيين الذين أعدمتهم جماعيا وبشكل منظم؛ فتفوقت جرائمها على جرائم الإبادة في أرمينيا وسربرنيتشا ورواندا وما فعله النازيّون الألمان باليهود في أثناء الحرب العالمية الثانية(5).. و«الاجتهاد» الذي أضافته إسرائيل على سِجل تلك المذابح، هو تعقبها للصحفيين الذين ينقلون، بالخبر والتقرير والصوت والصورة، فظاعاتها في زمن التعتيم والتضليل الإعلامي الغربي ونشر المعلومات الزائفة والكاذبة.. كيف تخوض إسرائيل حربها على الصحفيين وحرية الصحافة؟

تعتمد الآلية الخامسة على اللغة النزاعية، وهي أهم آلية يعتمدها الخطاب الإسرائيلي إزاء حركة حماس والفلسطينيين؛ بحيث يسعى هذا الخطاب إلى إقناع الجمهور وتحفيزه لنبذ أفكار «الخصم» ومعتقداته وقيمه وسلوكاته واستنكارها.

عدا عمليات القتل والقمع المباشرة بحق الصحفيين، عممت إسرائيل خطابا إعلاميا أسهم، في المضمون والشكل والأسلوب، في التمكين لخطاب متطرف تملؤه شتى صنوف العنصرية الكريهة، ووضع هذا الخطاب إستراتيجية اعتمدت على خمس آليات، كامنة أو ظاهرة، وَجَّهَتْه وجهةً معينة..

هذه الآليات هي:

الأولى، وضع النفس في موقع الضحية (وهذه ثابتة في الخطاب اليهودي منذ الأزل)؛ إذ يصور الإعلام الإسرائيلي، والغربي أيضا، الإنسان الإسرائيلي بصورة «الضحية» التي تتعرض للقتل والقصف والتعذيب والاضطهاد، وتحتاج -من ثَمّ- إلى المساعدة في رفع الظلم عنها.

الثانية، التعبئة وإثارة النفوس، بحيث يسعى الإعلام إلى تحريك عواطف الجمهور المتلقي وتأجيج مشاعره وإيقاظ الانفعالات لديه وتحفيز النفوس واستثارتها جماعيا لنصرة إسرائيل.. وتتمّ «فبركة» الرأي العام، تارة، عن طريق إثارة الفزع والذعر في حال تخلي العالم عن اليهود وساكني إسرائيل، أو من خلال الكذب ونشر صور لأحداث لم

تحصل في الحقيقة (مثل صور الأطفال المحروقين التي ادُّعِي بأنّها تعود لأطفال إسرائيليين ليتبين بعد ذلك زيفها)، وتارة أخرى عبر طمأنة «جمهورهم» بأن الانتصار المُحتَّم سيكون لـ«دولة إسرائيل».

الثالثة، التأسيس للخوف والكراهية، بحيث ينحو الإعلام الإسرائيلي والغربي، دوما، إلى بث نزعة الكراهية والتشدد والتحريض، في بعض المواقف والموضوعات، لممارسة العنف بحق الفلسطينيين.

أمّا الآليّة الرابعة، فهي النزعة الفوقية والشوفينية التي تقوم على مفهوم «تفوق إسرائيل (والغرب)» على الفلسطينيين والعرب والمسلمين، بوصفها حجّة ومنطلَقا لرفض فكر «العدوّ» وفلسفته، وكذلك بوصفها أداة سياسية واجتماعية لرفض أنماط العيش والاجتماع والنظم السائدة لدى هذا العدو؛ فإسرائيل هي التي ينتسب أعضاؤها إلى الطليعة، وعلى هؤلاء أن يحدّدوا، مِن ثَمّ، علاقاتهم بالآخرين المُحيطين بهم وفق أُسس دينهم ومبادئه وخصائصه وآفاق تعاليمه.

وتعتمد الآلية الخامسة على اللغة النزاعية، وهي أهم آلية يعتمدها الخطاب الإسرائيلي إزاء حركة حماس والفلسطينيين؛ بحيث يسعى هذا الخطاب إلى إقناع الجمهور وتحفيزه (بشكل مباشر وعلني غالبا) لنبذ أفكار «الخصم» ومعتقداته وقيمه وسلوكاته واستنكارها، بحكم أن كل ما لدى «هذا الخصم» غير مقبول ومكروه، ومرفوض حتى.. وفي هذا السياق، تعمد اللغة النزاعية لخطاب الإسرائيليين ومؤيديهم إلى تقويض مصداقية حركة حماس وتجريدهم من الشرعية عبر تصنيفها وتوصيفها بألفاظ سلبية وتجريدهم من الإنسانية عبر إظهار العمليات، التي تمارسها، منافية لحقوق الإنسان وكرامته، وإلصاق صفات شخصية وألقاب وتسميات تحمل خلفيات أيديولوجية ودينية وأخلاقية(7).

بعد اجتياحها العراق في سنة 2003، قررت الولايات المتحدة الأمريكية إنفاق ملايين الدولارات من أجل «تشجيع الديمقراطية في العالم العربي»، من خلال دورات تدريب للصحفيين؛ فواشنطن تُدرك، بعد التجربة المُرّة في فيتنام، أنّ الإعلام أكثر خطورة من أن يُترَك للإعلاميين..

واليوم وبعد عقدين من الزمن، ها هي الولايات المتحدة، ذاتها، تُنفِق ملايين الدولارات من أجل تشجيع القمع في فلسطين، من خلال إطلاق العنان للآلة الحربية الإسرائيلية لكي تقتل الصحفيين، بخاصّة.. رهيبة هذه المفارقة!

واليوم، إذا كانت الأنظمة السياسية الغربية، ولا سيما تلك المتعاطفة مع كيان الاحتلال في فلسطين، مبتهجة بالعناوين البراقة التي تسوقها عن نهجها الديمقراطي الحر؛ كعنوان «اليوم العالمي لحرية الصحافة»، فلأنّها تعبِّر، عموما، عن نفاق واضح وتساوق لا مثيل له مع الجلاد منذ البداية.. فهل ستتنكر له، عندما تُدرك أنّه ساقط لا محالة؟ اقتضى التساؤل والترقّب.

المراجع:

(1) سعاد قطناني، BBC انكسار الصورة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2018.

(2) Stéphane Hoebeke & Bernard Mouffe, Le droit de la presse, Anthemis s.a, Belgique, 3e édition, 2012.

(3) صباح ياسين، الإعلام حرية في انهيار، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010.

(4) عبد الناصر العبري، الإعلام والحرب في بيئة أمنية متغيرة - توازنات إستراتيجية وفاعلون جدد، بيروت، رياض الريّس للكتب والنشر، 2021.

(5) رشيد الخالدي، حرب المئة عام على فلسطين، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2021.

(6) Patrick Charaudeau, Les médias et l'information - l'impossible transparence du discours, Bruxelles, De boeck, 2005.

(7) Daniel Cornu, Journalisme et vérité, Genève, LABOR ET FIDES, 2009.

بعد عام من الحرب.. عن محنة الصحفيات السودانيات

أميرة صالح

دخلت الحرب الداخلية في السودان عامها الثاني، بينما يواجه الصحفيون، والصحفيات خاصّةً، تحديات غير مسبوقة، تتمثل في التضييق والتهديد المستمر، وفرض طوق على تغطية الانتهاكات ضد النساء

مع طلقة رصاصة حرب 15 أبريل/ نيسان دوت صرخة الحقيقة؛ ففي خضم الصراع الدائر في السودان واجه الصحفيون والصحفيات تحديات جسيمة تاركين وراءهم الصحف الورقية الصامتة ليتجهوا إلى ساحات النضال الرقمي.

انقسم الصحفيون إلى فرق كثيرة، منهم من دعم بوضوح الأطراف المتصارعة، بينما اختار فريق يعمل في صمت دربَ رواية الحقيقة بمعايير مهنية وأخلاقية في ظروف صعبة للغاية ومعقدة تبرز معاناة المواطن في ظل تشدد أطراف النزاع في مناطق سيطرتهم.. كما اتجه فريق آخر إلى مهن أخرى بعيدا عن الصحافة، تؤمّنُ لهم لقمة عيش وتجنّبهم انكسار السؤال.

لكن واقع التهديدات والانقسامات تفشّى حتى وصل المنصّات الرقمية؛ فالجميع يسعى جاهدا لإظهار إخفاقات الطرف الآخر أينما تسنّى ذلك.. ووسط هذا الصخب ضاعت الحقيقة بين براثن الشائعات والأخبار الكاذبة.

لكن بعض الصحفيين لم يستسلموا لتلك الفوضى فطاردوا الأحداث المتسارعة في أرجاء البلاد ورصدوا ردود الفعل الدولية والإقليمية وميزوا بين الدعاية الحربية والمعلومات الموثوقة.

شكلت حرب 15 أبريل/ نيسان منعطفا خَطِرا في مسار الصحافة السودانية؛ فبينما واجهت الصحف الورقية «خُسوفا» إجباريا، برز دور الصحافة الرقمية بوصفها بديلا جديدا للدفاع عن الحقيقة.

وفقا لتقارير صادرة عن نقابة الصحفيين السودانيين، تعرضت صحفيّتان لأحداث مؤلمة؛ إذ توفيت حليمة إدريس بعد أن دهستها سيارة تابعة لقوات الدعم السريع في أثناء تأدية عملها، وفي السياق نفسه تعرضت سماهر للتهجير من منزلها في وسط دارفور، لتستقر في معسكر للنازحين الذي تم ضربه بمدفعية أدت إلى تدميره.

إضافة إلى ذلك، اختفت قسرا 8 صحفيات وتعرضت 3 صحفيات للإصابة، وكانت صحفية أخرى ضحية للعنف الجنسي، بينما تلقت 9 صحفيات تهديدات شخصية.

ولعل من التحديات الأساسية التي يواجهها الصحفيون

السودانيون هي المعاملة المذلة والإساءة المستمرة والتضييق والاعتداءات، ما يدفعهم إلى إخفاء هوياتهم لتجنب أي استهداف مباشر من الأطراف المتحاربة.. إنّ مجمل الحالة التي يعيشها الصحفيون والصحفيات تخلق شعورا بالخوف الدائم وعدم الأمان يعوقهم عن العمل والحركة ويقمع قدرتهم على التعبير بحرية.

قصة سارة

تروي الصحفية سارة تاج السر أن كثيرا من الصحفيات «يعشن أوضاعا صعبة ويواجهن مخاطر يومية بحثا عن الحقيقة وسط الاقتتال الدائر بين الجيش السوداني وقوات الدعم السريع وسوء الاتصالات والإنترنت، وقد سبب لي المكوث في أم درمان حتى شهر أغسطس وانتقالي إلى مدينة عطبرة لمواصلة عملي صدمة كبيرة».

تشير سارة إلى التحديات التي واجهتها في الحصول على المعلومات؛ إذ كان الجيش السوداني يكتم التصريحات ويترك الساحة فارغة لقوات الدعم السريع التي تهيمن على المشهد الإعلامي مبرزة صعوبة التحقق من صحة المعلومات، ولا سيما فيما يتعلق بقضية الاغتصاب التي ارتكبتها قوات الدعم السريع أمام صمت الناجيات خوفا من الملاحقة.

هذا الطوق المفروض على المعلومات دفع بسارة إلى الاستعانة بمراكز العلاج النفسي ولجان المقاومة بالأحياء لجمع المعلومات خوفا من الاعتقالات التي تعرض لها الصحفيون من كلا الطرفين.

كان الجيش السوداني يكتم التصريحات ويترك الساحة فارغة لقوات الدعم السريع التي تهيمن على المشهد الإعلامي مبرزة صعوبة التحقق من صحة المعلومات، ولا سيما فيما يتعلق بوقائع الاغتصاب التي تتهم قوات الدعم السريع بارتكابها، مع استغلال صمت الناجيات خوفا من الملاحقة.

محنة مضاعفة

تسرد الصحفية السودانية (هـ/م) قصة مروّعة عن معاناتها

«مع طلقة رصاصة حرب 15 أبريل واجه الصحفيون تحديات جسيمة تاركين وراءهم الصحف الورقية الصامتة ليتجهوا إلى ساحات النضال الرقمي» (تصوير: ديفيد ديجنر - غيتي).

خلال عام من الحرب، ولا سيما أنها تنتمي إلى إثنية تعرضت لمذابح على يد قوات الدعم السريع بمدينة الجنينة في غرب السودان.

عانت (هـ) من ضغط نفسي هائل خلال الأشهر الطويلة الماضية، ولا سيما خلال فترات انقطاع الاتصال بأشقائها في الجنينة، الذين يواجهون خطر الموت من كل جانب، وهو ما اضطرها إلى الانتقال من مكان إلى آخر هربا من الاستهداف بسبب إثنيتها أو بسبب مهنتها كصحفية.

اليوم، استطاعت الصحفية الوصول إلى منطقة آمنة خارج السودان تضمن لها هي وعائلتها حدا أدنى من الحياة الكريمة بعيدة عن الخوف من احتمالات العذاب وهاجس الملاحقة..

> **على الصعيد النفسي توضح الصحفيات أن غياب الدعم النفسي المتخصص ترك آثارا مستمرة حتى الآن؛ إذ عانت عدة صحفيات من القلق واضطرابات النوم والكوابيس المزعجة والخوف من المجهول.**

المعاناة النفسية

أما الصحفية السودانية الشابة سلمى عبد العزيز، فترى أن المحنة التي واجهتها الصحفيات السودانيات خلال الحرب تجاوزت المخاطر الجسدية لتشمل النفسية والاقتصادية.

وعلى الصعيد النفسي توضح سلمى أن غياب الدعم النفسي ترك آثارا مستمرة حتى الآن؛ إذ عانت عدة صحفيات -وهي منهنّ- من القلق واضطراب النوم والكوابيس المزعجة والخوف من المجهول.

وتتفاقم معاناة سلمى النفسية بالتعرض المباشر للمخاطر وفقدان الزملاء والأصدقاء والنزوح القسري مع صعوبة الحصول على الدعم.. أما عن الجانب الاقتصادي فتقول: «أن تستيقظ فجأة وتجد نفسك بلا عمل وبلا مصدر دخل ليس بالأمر السهل».

هذه قصتي

قصتي كصحفية لا تختلف عن زميلاتي كثيرا؛ إذ قررنا مغادرة الخرطوم بعد مرور 75 يوما من اندلاع الحرب، متجهة إلى

«الواضح أن الدولة تشتغل بالعقلية نفسها التي كان يستخدمها نظام البشير في التعامل مع الصحفيين، مع تشديد القبضة وتجاوز الحدود وعدم احترام القوانين الوطنية والمواثيق الدولية» (تصوير: عبد المنعم عيسى - غيتي).

مدينة مدني في وسط السودان رغم التحديات والتهديدات الجمّة.

«كنت أخشى على نفسي وعلى عائلتي التي تعرضت للتهديد من قبل أفراد الدعم السريع في أثناء السفر، وكانت والدتي قلقة بشكل خاص على سلامتي؛ لذلك أمرتني بوضع الحناء على يدي إشارةً للآخرين بأنني متزوجة؛ لأن الفتيات كن مستهدفات بشكل مباشر».

كنت أخشى على نفسي وعلى عائلتي التي تعرضت للتهديد من قبل أفراد الدعم السريع أثناء السفر، وكانت والدتي قلقة بشكل خاص على سلامتي؛ لذلك أمرتني بوضع الحناء على يدي إشارةً للآخرين بأنني متزوجة؛ لأن الفتيات كن مستهدفات بشكل مباشر.

ما زالت المعاملة السيئة تجاه الصحفيين مستفحلة باستهداف قنوات ومنصّات إعلامية من قبل أطراف الصراع بحجة عدم الالتزام بالشفافية والمهنية المطلوبتين، مع أن الغرض الأساسي من وراء ذلك هو تضييق الخناق على الصحفيين الذين يسعون إلى كشف الحقيقة وتسليط الضوء على معاناة المواطنين وأداء أدوارهم المهنية المنوطة بهم.

الواضح أن الدولة لم تتخلّ عن تلك العقلية التي سادت إبان حكم النظام السابق في التعامل مع الصحفيين، حيث يتواصل تشديد القبضة وتجاوز الحدود وعدم احترام القوانين الوطنية والمواثيق الدولية التي تكفل حق الصحفيين في ممارسة مهنتهم بحرية ومن دون أي قيود.

تسعى الأطراف المتحاربة إلى تغطية انتهاكاتها باللجوء إلى منع الصحفيين من ممارسة المهنة باحترام معاييرها المعروفة للوصول إلى المعلومة الموثوقة وتقديمها إلى المواطنين.

ينبغي أن يتعامل المجتمع الدولي مع هذه الأوضاع بجدية، وأن يعمل على تحسين بنية الاتصالات وتوفير حماية للصحفيين لتمكينهم من العمل بحرية وبشكل آمن، ولا سيما مع تقطّع شبكة الإنترنت في الخرطوم وأجزاء من الولايات الأخرى، ما يجعل الانتهاكات التي تقع هناك «خارج التغطية».

تسعى الأطراف المتحاربة إلى تغطية انتهاكاتها باللجوء إلى منع الصحفيين من ممارسة المهنة باحترام معايير المهنة المعروفة للوصول إلى المعلومة الموثوقة
(تصوير: بايرون سميث - غيتي).

حرية الصحافة في مواجهة مع الذكاء الاصطناعي

عبد اللطيف الحاج محمد

بعيدا عن المبالغات التي ترافق موضوع استخدام الذكاء الاصطناعي في الصحافة، فإن سرعة تطوره تطرح مخاوف تتعلق بمدى تأثيره على حرية التعبير. تنبع هذه الهواجس من أن الذكاء الاصطناعي يطور في القطاع الخاص المحكوم بأهداف رأسمالية بالدرجة الأولى

من نافل القول أن البيئة الإعلامية التي تواجه الصحفيين والصحفيات اليوم تختلف في كثير من النواحي عن البيئة الإعلامية التي كانت سائدة قبل دخول تقنيات الذكاء الاصطناعي إلى صناعة الإعلام.. في الصحافة، أصبح الذكاء الاصطناعي (AI) حاضرا بشكل متزايد، ولديه القدرة على إحداث ثورة في كيفية صناعة الصحافة واستهلاكها، وطريقة إنتاج الأخبار ونشرها.. وتتراوح التقنيات التي تندرج تحت المصطلح الشامل للذكاء الاصطناعي بين الوظائف اليومية (مثل البحث، والترجمة، والتلخيص، وتوليد الأسئلة و الأفكار، والمساعدة في وضع العناوين) والخوارزميات المعقدة التي تعتمد على التعلم العميق لإنشاء نصوص أو مقاطع فيديو؛ إذ بدأت أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدية تحل محل و/أو تكمّل الوسائط التقليدية في غرف الأخبار.. ومنذ أن صدرَ شات جي بي تي عن شركة «أوبن إيه آي» في نوفمبر/ تشرين الثاني 2022، احتدم النقاش وطُرح سؤال مركزي: هل هذا هو خلاصنا أم هي نهاية العالم؟ في هذا السياق، كتب المحاضر والمؤلف السويدي كريستر أولسون في «كل ما لم يُطوَّر يُفَكَّك»: «عندما يتعلق الأمر بالذكاء الاصطناعي والصحافة، فهذا ليس استثناء.. التكنولوجيا الجديدة تولد تقنية جديدة؛ إذ الهدف النهائي هو البحث عن الكفاءة والتحسين الذي ليس له هدف واضح.. إنها الداروينية الرقمية في أفضل صورها؛ إذ يكون التطور ثابتا، ويتعين علينا باستمرار التكيف مع السلوكات والأنماط والمتطلبات الجديدة».

كيف يمكن أن يؤثر الذكاء الاصطناعي على حرية الصحافة؟

يحذر تقرير أصدرته مؤسسة «المادة 19» ومؤسسة «الخصوصية الدولية»، من أن الذكاء الاصطناعي يمكن أن يصبح تهديدا لحرية التعبير.

وفقا للتقرير، هناك العديد من العواقب المترتبة على الذكاء الاصطناعي التي تمثل بالفعل مشكلة من وجهة نظر حرية التعبير.

يسرد التقرير خمس نقاط تُعد إشكالية بشكل خاص بالنسبة لحرية الصحافة والتعبير، وهي:

عدم احترام القانون: على الرغم من أن التنمية الاقتصادية اليوم تخضع للتنظيم الذاتي بهدف الشفافية والأخلاق والمسؤولية، فإنه غالبا ما يكون هناك نقص في الوسائل الملموسة للمتابعة القانونية والمطالبة بالمسؤولية من الشركات العالمية، على سبيل المثال:

«إن التهديد الحقيقي الذي يشكله الذكاء الاصطناعي في علاقته بحرية الصحافة والتعبير يتمثل في تآكل الحقائق ونسبيّتها، والانتقال إلى عصر ما بعد الحقيقية» (شترستوك).

انعدام الشفافية: وبما أن الذكاء الاصطناعي يُطوّر اليوم في الغالب في القطاع الخاص، فمن الصعب على الجمهور والسلطات تكوين رأي بشأن كيفية تأثير الابتكارات الجديدة على الحق في حرية التعبير.

النقاش الاجتماعي ووسائل الإعلام: يميل النقاش العام إلى التركيز على المخاطر الأكثر عمومية والخيالية في بعض الأحيان التي يخلقها الذكاء الاصطناعي، بدلا من معالجة المشكلات الملموسة الموجودة

الإجابات وفقا للتفضيلات الشخصية... ما يقدمه «الشات بوت» ردا على استفساراتك، قد لا يقدمه لي.

إن التهديد الحقيقي الذي يشكله الذكاء الاصطناعي

«تندرج أخلاقيات الذكاء الاصطناعي تحت فئة الأخلاق التطبيقية التي تنظر إلى ما يجب على الفاعل الأخلاقي أن يفعله أو قد يفعله في موقف معين أو ضمن نشاط معين» (شترستوك).

يحذر تقرير أصدرته مؤسسة «المادة 19» ومؤسسة «الخصوصية الدولية»، من أن الذكاء الاصطناعي يمكن أن يصبح تهديدا لحرية التعبير.

انعدام المساءلة: كثيرا ما تظهر تطبيقات الذكاء الاصطناعي في سياقات لا ندرك حتى بوجودها، على سبيل المثال في حالة مراقبة الكاميرا بالتعرف إلى الوجه أو تطبيقات الهاتف التي من المحتمل أن تتنصت علينا حتى ونحن لا نستخدم الهاتف.. في حالة حدوث تجاوز، قد يكون من الصعب في كثير من الأحيان تحديد المسؤوليات.

مسبقا، التي يمكن -من ثَمّ- التغاضي عنها بسهولة.

جمع البيانات واستخدامها: إن كيفية جمع البيانات وكيفية استخدامها ضمن الأنظمة القائمة على الذكاء الاصطناعي لهما أهمية قصوى بالنسبة لحق الجميع في حرية التعبير على قدم المساواة في المستقبل.

كما هو الحال مع التطورات التكنولوجية جميعها، يجلب الذكاء الاصطناعي تحديات ومخاطر أخلاقية كبيرة.. إحدى القضايا المهمة هي التحيز في نماذج الذكاء الاصطناعي وبياناته؛ لأنه إذا استُبدل الذكاء الاصطناعي بمحركات البحث التقليدية والصحفيين، فستُكيِّف روبوتات الذكاء الاصطناعي

في علاقته بحرية الصحافة والتعبير يتمثل في تآكل الحقائق ونسبيّتها، والانتقال إلى عصر ما بعد الحقيقة.

لذلك يعد التوصل بسرعة إلى طريقة عالمية لمواجهة المعلومات المضللة أمرا مهما الآن؛ ذلك أن تطوير التكنولوجيا يسير بسرعة فائقة، وإذا لم تتمكن وسائل الإعلام من الحفاظ على مصداقيتها في ظل «عواصف» المعلومات المضللة، فإن الأمر يشكل تحديا أساسيا لحرية التعبير.

التزييف العميق

إن الجدل الأوسع بشأن تأثير الذكاء الاصطناعي على حرية الصحافة معقد بسبب ما

تتيحه هذه التقنيات من إمكانات التزييف العميق.

عندما تصبح تقنية التزييف العميق في حد ذاتها أداة للتلاعب بالحقيقة، يصبح من الصعب القول إن التدفق الحر للمعلومات يعني أن الأسبقية هي للحقيقة دائما.

ربما في المستقبل القريب لن يشكل الذكاء الاصطناعي تهديدا على أساس أن التكنولوجيا أصبحت واعية بذاتها، بل على أساس الطريقة التي يختار بها مُنتجو الأخبار وموزعوها استخدام التكنولوجيا.. أحد مجالات استخدام تقنية الذكاء الاصطناعي هو ما يسمى بالتزييف العميق؛ أي الصور ومقاطع الفيديو أو التسجيلات الصوتية التي جرى التلاعب بها، والتي يمكن أن تقدم تصويرا واقعيا لشيء لم يحدث قط.. صحيحٌ أنه يمكن أن تكون لمثل هذه التقنيات تطبيقات تعزّز حرية التعبير، كأن تخلق فرصا جديدة للتعبير الفني أو السياسي الساخر، إلا أن المخاطر فادحة للغاية.. على سبيل المثال، يعد استخدام التزييف العميق في صناعة المواد الإباحية من دون موافقة الشخص الذي جرى تصويره معضلة تؤرّق السلطات والعامّة في العديد من الدول.. كذلك تستخدَم تقنيات التزييف العميق في عمليات التضليل وصناعة ونشر المعلومات الخاطئة وعمليات الاحتيال، وهي عمليات وأنشطة قد يمتدّ أثرها حتى وسائل الإعلام والمنصّات الإخبارية، لاسيما المحليّة منها..

هنا يمكن ملاحظة أن المشكلة الأخطر التي قد تنجم عن تقنيات التزييف العميق على المدى الطويل ليست تصديق الناس للوسائط المزيفة، بل في تقويض مصداقية صحة أي فيديو أو صورة أو تسجيل صوتي، حتى لو كان أصليا، نظرا لتلاشي القدرة على التمييز بينه وبين المنتج عبر تلك التقنيات.

أظهرت الأبحاث أن التحيز المعرفي لدى الناس يؤدي إلى المبالغة في قياس قدرتهم على تمييز المعلومات الصحيحة ومقاومة المعلومات الخاطئة؛ إذ تسود بدلا من ذلك صورة مفادها أن الآخرين هم الذين يجري خداعهم.. ويمكن النظر إلى التزييف العميق على أنه يعزز فقاعات الترشيح والاستقطاب الموجودة على وسائل التواصل الاجتماعي؛ إذ يصدق الناس فقط المعلومات التي تؤكد وجهات نظرهم، ومن ثَمّ فإنه يمثل تهديدا للديمقراطية؛ ذلك أن الحقيقة العقلانية والمنطقية ستكون دائما قابلة للتشكيك بحجج ملفقة.

> بما أن الذكاء الاصطناعي يُطوّر اليوم في الغالب من طرف القطاع الخاص، فمن الصعب على الجمهور والسلطات تكوين رأي بشأن كيفية تأثير الابتكارات الجديدة على الحق في حرية التعبير.

ومع ذلك، يرى بعضهم أن عدم اليقين الناجم عن وجود التزييف العميق له فوائد؛ لأن غرف الأخبار، وشركات الإعلام والمؤسسات، تحتاج إلى أن تكون أكثر شفافية وأن تعزز استجاباتها للمخاطر التي يشكلها التزييف العميق.

نظرا لأن تقنية التزييف العميق تعالج في كثير من الحالات البيانات الشخصية في شكل وجه و/ أو جسد و/ أو صوت شخص مادي، فإن الاتحاد الأوروبي أقر مؤخرا أول قانون لتنظيم تقنيات استخدامات الذكاء الاصطناعي يهدف إلى ترشيد التطوّر في هذا المجال بناء على تقييمات ملزمة وشاملة لمخاطرها المحتملة والآثار المرتبطة بها على الحقوق الأساسية والأمن.

هل تنقذنا أخلاقيات الصحافة؟

بينما يوفر الذكاء الاصطناعي فرصا مهمة ويبسط سير العمل، فإنه يثير أيضا أسئلة مهمة بشأن حرية الصحافة والأخلاق والمسؤولية.. تُعَد أخلاقيات استخدام الذكاء الاصطناعي في الصحافة قضية ديناميكية وهامة في المشهد الإعلامي اليوم؛ إذ يطرح السؤال الدائم: هل الصحفيون وفرق التحرير على دراية بأخلاقيات الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته والتحديات المحتملة ذات العلاقة به؟

تندرج أخلاقيات الذكاء الاصطناعي تحت فئة الأخلاق التطبيقية التي تنظر إلى ما يجب على الفاعل الأخلاقي (الذي يُعرَّف بأنه شخص يمكنه الحكم على الصواب

والخطأ ويمكن محاسبته) أن يفعله أو قد يفعله في موقف معين أو ضمن نشاط معين.

في الوقت الحاضر، تُعَدّ أخلاقيات الذكاء الاصطناعي في الصحافة جزءا من الأخلاقيات التكنولوجية المطبقة على الروبوتات وكيانات الذكاء الاصطناعي الأخرى.. تتناول هذه العقيدة أسئلة عن كيفية عمل المطورين والمصنعين والسلطات ومقدمي الخدمات لتقليل المخاطر الأخلاقية التي يمكن أن يجلبها الذكاء الاصطناعي إلى المجتمع، سواء أكان ذلك يتعلق بالتصميم أم بالاستخدام غير السليم أم بالإساءة المتعمدة للتكنولوجيا.

الذكاء الاصطناعي يعيد تشكيل العالم الذي تسكنه الصحافة

يقارن البعض إمكانات الذكاء الاصطناعي بالأسلحة النووية، وهي مقارنة تساعد على جعل القضيّة أقرب للفهم؛ إذ يعلمنا ظهور القنبلة الذرية الكثير عن الكيفية التي يجب مراعاتها عند التعامل مع الذكاء الاصطناعي.

يُعرف الجهد الهائل الذي بذلته الولايات المتحدة لتكون أول من يطور القنبلة الذرية باسم «مشروع مانهاتن»، وكان الفيزيائي روبرت أوبنهايمر أحد أشهر الأشخاص الذين دافعوا عنه.. لكن وبعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي في أغسطس 1945، شعر الشعب الأمريكي بمزيج من الفخر والراحة، والخوف والفزع.. ففي البداية، كان سعيدا لأن القنابل أنهت الحرب، لكن بعد ذلك شعر بالرعب من القوة الرهيبة التي أطلقوها وتسبب بذلك القدر من الموت والدمار الذي يعرّض وجود البشريّة بأسرها إلى الخطر.

ومن المهم اليوم أن نضع في الحسبان أن الذكاء الاصطناعي يشابه القنبلة الذرية، إذ يعتمد كلا المجالين على المبادئ والأبحاث العلمية الأساسية.. بينما تعتمد الأسلحة النووية على الفيزياء الذرية، فإن الذكاء الاصطناعي يعتمد على علوم الحاسوب والتعلم الآلي.. ومثل علم النواة الذرية والانشطار الذري، فإن معرفة البيانات والتعلم الآلي لا تنطوي على معضلة أخلاقية في حد ذاتها، ولكن الإشكال يتعلق بكيفية استخدام تلك المعرفة وبالنتائج التي قد تترتب عليها.

يمكننا العمل بشكل أكثر دقة وأمانا مع تقنيات الذكاء الاصطناعي إذا ما طوّرناها واستخدمناها على نحو صحيح ومسؤول.. أما إذا تركنا الحبل على الغارب لعمالقة التقنية في العالم، فإنّ الصحافة وغيرها من المجالات عالية الأنسنة ستواجه مشاكل جوهرية متعددة الأوجه ومفتوحة الاحتمالات.. ولهذه الأسباب تطالب العديد من الأطراف الآن بصوت عالٍ بوضع اللوائح التنظيمية وترشيد عمل الشركات التقنية الكبرى (من بينهم مؤسس Open AI)، بينما يحذر آخرون من ضرورة أن لا يؤدي ذلك إلى إعاقة الابتكار التكنولوجي.

إن معرفة البيانات والتعلم الآلي لا تنطوي على معضلة أخلاقية في حد ذاتها، ولكن الإشكال يتعلق بكيفية استخدام تلك المعرفة وبالنتائج التي قد تترتب عليها (شترسوك).

غوغل رئيسا للتحرير: هل نكتب للجمهور أم لمحركات البحث؟

عصام واعيس

محركات البحث لا تزال نقطة عبور مكينة للقرّاء نحو مواقع الصحافة، لكن العبور رهين باستيفاء الموقع شروطا صارمة تستند إلى بيانات دقيقة، هدفها تلبية رغبات جمهور محرك البحث لا الصحافة.

لنبدأ بسؤال: من أين يأتي القرّاء؟ كيف وصلتَ إلى هذا المقال وكيف وصل هذا المقال إلى علمك؟ قد تكون قارئا وفيا لمجلة الصحافة يطل على موقعها من حين إلى آخر، ويجوز أن تكون وصلت إلى هنا مدفوعا بسؤال ألقيته على محرك بحث أو بِداعٍ من فضول حرّكه فيك منشورٌ على فيسبوك، أو ربما وصلتكَ رسالة في بريدك الإلكتروني تخبرك أن أحدهم نصّب غوغل رئيس تحرير علينا!

فأنت هنا وهناك بين مواقع الإنترنت -أفترض أنك تفتح عدة نوافذ في متصفّحك- إما من دون وساطة أي بعدما كتبت اسم الموقع الإلكتروني مباشرة في متصفّح الإنترنت، وهو ما يسمى بالوصول المباشر، وإما أنك وصلت إلى حيث أنت بواسطة من:

- محركات البحث (ويسمى هذا الطريق البحث الأصيل أو العضوي).
- الشبكات الاجتماعية (أقل أصالةً).
- مواقع إنترنت أخرى (عبر رابط يحيلك من موقع إلى آخر).
- النشرات البريدية.
- قائمة المصادر التي تعقب الأجوبة في برامج الدردشة الموصولة بالإنترنت (مثل كوبايلوت Copilot أو جيميناي Gemini).

لكن الإحصاءات تقول إنك تزور كثيرا من المواقع أساسا قادما من محرك بحث؛ فحسب بيانات توزيع حصص السوق بين مختلف الوسائل المذكورة في النقاط السابقة، فإن قرابة 53 في المئة من زوار المواقع يفدون عليها من معابر محركات البحث، و 81 في المئة يأتون من معبر غوغل.. ولا يهمنا هنا سؤال هل وصول القارئ إلى ضالته نتيجة إعلان مدفوع في تلك المنصات أم لا، بقدر ما يهمنا أن تلك المنصات تفرض نفسها محطة عبور إلى كل موقع، وأساسا لمواقع الإعلام.

من زاوية القارئ، هذا مسار سريع ومريح، يكفي أن يسأل غوغل عن أحوال الطقس أو الحروب أو نتائج المباريات فيحيله على أفضلها في لمح البصر.. والآن، مع برامج الدردشة المزودة بالذكاء الاصطناعي صار كل مستخدم قادرا على الحصول على ما يريد حتى قبل أن يرتد إليه طرفه!

من زاوية الصحافة والتحرير هذا مسار معقد ومربك.. تصدّر نتائج صفحة محرك بحث (Search Engine Results Pages) معضلة فعلية؛ لأن

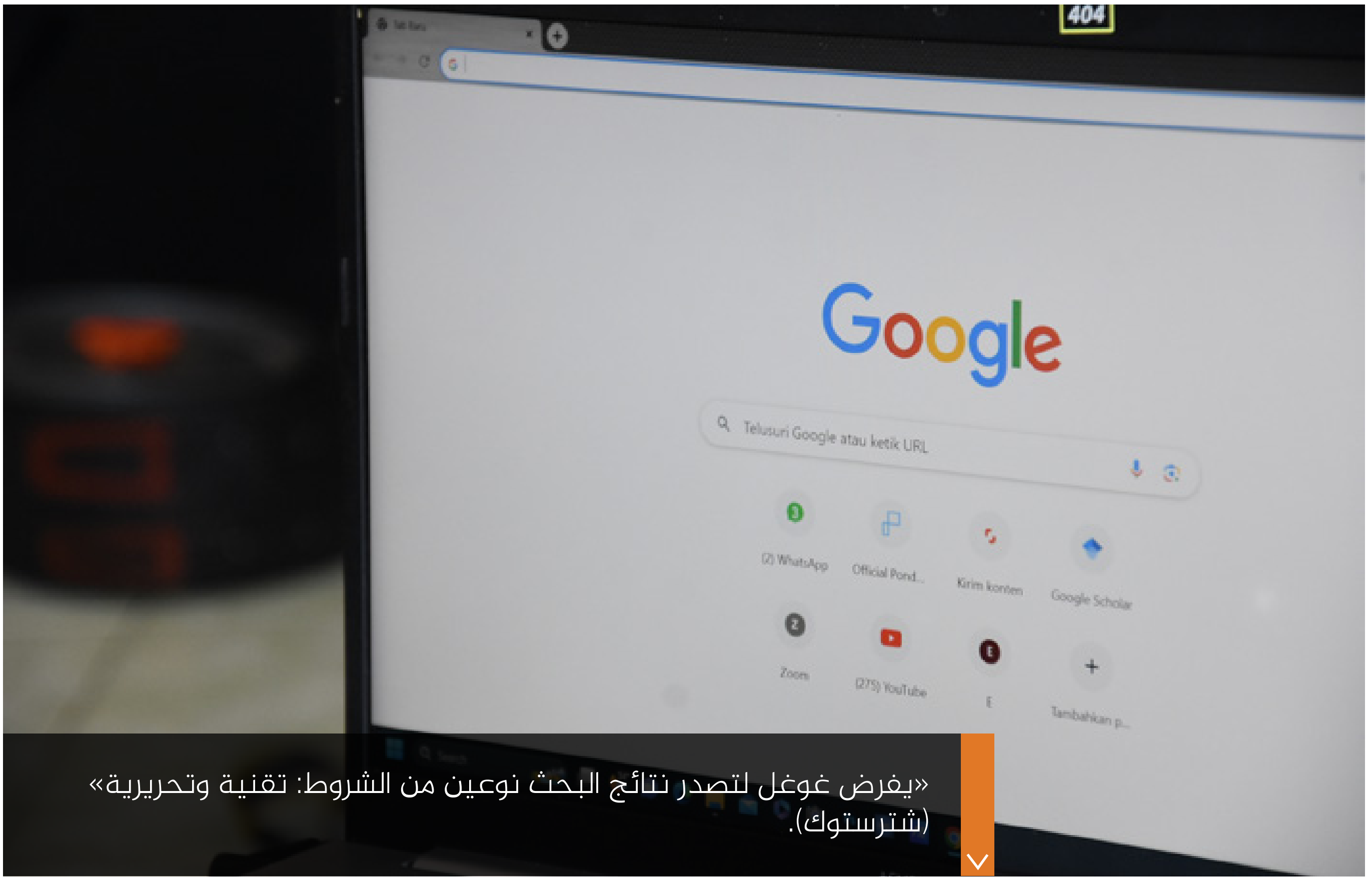

«يفرض غوغل لتصدر نتائج البحث نوعين من الشروط: تقنية وتحريرية» (شترستوك).

غوغل يفرض أحيانا ما يصل إلى 200 شرط قبل أن يمنح موقعا تأشيرة الظهور في الصفحة الأولى للنتائج.
ما شروط غوغل لتصدّر نتائج البحث؟

هذا النهج الواقعي من غوغل في التعاطي مع الأبحاث وترشيح مواقع دون أخرى، سيتسرّب إلى طريقة تعاطي الصحافة مع البيانات وإستراتيجياتها في تحقيق انتشار أكبر وتوسيع قاعدة قرائها ومشتركيها.

يفرض غوغل نوعين من الشروط: تقنية وتحريرية.. والنوعان مترابطان ومتداخلان.. ترتبط الشروط التقنية أساسا بمعايير من قبيل سرعة تحميل الموقع والصفحات، ووضوح الصور، وتماسك الروابط الداخلية، وأحيانا أقدمية نطاق الإنترنت، وسعة الخوادم وغيرها.

أما المعايير التحريرية، التي تهمنا أكثر، فترتبط بمعايير تحريرية من يضعها ليس رئيس التحرير وإنما محرك البحث.. وتتصل بأسئلة من مثل
- هل تمت تغطية موضوع البحث من الزوايا كلها؟
- هل الكلمة المفتاح حاضرة في الرابط والعنوان ومقدمة المقال والفقرة الأولى؟
- هل الروابط ضمن المقال مرتبطة بموضوعه؟
- ما معدل البقاء في الصفحة؟ (كلما طال عُدَّ المقال «نتيجة جيّدة» ونجاحا لغوغل).
- هل المقال جزء من شبكة مقالات تغطي الموضوع من جوانب أخرى (يميز غوغل بين المقال الأساس (Cornerstone content) مثلا «تفاصيل صفقة لتبادل الأسرى بين المقاومة والاحتلال» ومقالات تابعة قد تحكي عن بعض كواليس المفاوضات أو أسماء بعض الأسرى أو ردود فعل عائلات....)
- هل المقال مقدم في شكل نقاط واضحة ودقيقة؟
والبحث عن تلبية هذه المعايير هو منطلق ما يعرف في أدبيات التسويق والإعلام بـ«تحسين الترتيب بنتائج محركات البحث» (Search Engine Optimization)، التي تعني بكل بساطة العمل على استجابة المحتوى لأكبر عدد من شروط غوغل.

وغوغل يرى إلى حد ما أن هذه الشروط هي ما يفترض أن يكون عليه أي محتوى يحترم نفسه، لكن المشكل هنا أن كثيرين صاروا قادرين على استنساخ

تجارب عليلة في مضمونها، لكنها –شكلاً- مقدمة بالأشكال والصيغ التي يريدها غوغل.

يؤكد تقرير لنيويورك تايمز أن قصة تحقق 100 ألف مشاهدة أو 200 ألف مشاهدة تجعل القارئ يشعر بأنه يحصل على تفاصيل وتحليل لا يجدهما في مكان آخر هو أكثر قيمة بالنسبة للصحيفة من خبر مسلٍ ينتشر كالنار في الهشيم وقلّما يغري أحدا بالاشتراك.

وبشكل عام، يهدف غوغل من وراء هذه الشروط إلى تشجيع الكتابة عن أبحاث المستخدمين أو نواياهم(User Intent) من وراء كل كلمة البحث.

وهذا النهج الواقعي من غوغل في التعاطي مع الأبحاث وترشيح مواقع دون أخرى، سيتسرّب إلى طريقة تعاطي الصحافة مع البيانات وإستراتيجياتها في تحقيق انتشار أكبر وتوسيع قاعدة قرائها ومشتركيها، وسط حيرة وممانعة وأسئلة عن كيفية توزيع الجهد بين رسالة الصحافة وأهدافها وما يبحث عنه الناس أو ما يريدونه منها.

حيرة نيويورك تايمز

سنة 2017، خلصت صحيفة نيويورك تايمز إلى أنها «تخصص نسبة كبيرة من الموارد لقصص يقرؤها عدد قليل نسبيا من القراء» وإلى أن «قرّاءها متعطشون لقراءة نصائح من التايمز».. تقصد بالنصائح الإرشادات والتوجيهات التي تساعد الإنسان في معاشه اليومي (ماذا أرتدي لهذا الحفل؟ كيف أطبخ الحريرة؟ كيف أكتب رسالة وداع...).

«تواجه وسائل الإعلام الأصغر حجما التي تعتمد على الزيارات القادمة من محركات البحث والشبكات الاجتماعية تحديا صعباً في حرب مفروضة مع كبار السوق، سواء من شركات التكنولوجيا أو الشركات الإعلامية المنافسة» (شترستوك).

كانت الصحيفة قد كلّفت مجموعة مكونة من سبعة صحفيين في تلك السنة بكتابة تقرير يستكشف مدى قدرة الصحيفة على تحقيق أهدافها المسطرة برسم سنة 2020، وفي صلب تلك الأهداف مضاعفة أرباحها من الاشتراكات لتصل إلى 800 مليون دولار.

رجّح التقرير أن تعجز صحيفة تايمز عن مضاعفة أرباحها إذا «ما' واصلت ببساطة تحسين أدائها فيما تحسن القيام به مسبقا»، موصيا بتخصيص حيّز أكبر للمقالات التي تقدم نصائح للناس وإرشادات عملية لري عطش القرّاء إلى الأجناس الخدماتية، حسبما رصد معدو التقرير مما قلّبوا من بيانات وآراء.

> "تظل الشبكات الإعلامية الكبرى مثل بي بي سي والجزيرة وسي أن أقدر على مواجهة تحديات محركات البحث وجدران عمالقة التكنولوجيا من غيرها، ولا سيما بالرهان على سمعتها ورصيدها لتحويل قرائها إلى مشتركين وربطهم مع تطبيقاتها الهاتفية أو خدماتها على مواقعها على الإنترنت."

تعكس لغة التقرير، رغم ذلك، ممانعة صامتة أو حيرة في التعاطي مع الحقائق التي تأتي بها البيانات عمّا يريده القراء.

مثلا، من ناحية يؤكد التقرير أن قصة تحقق 100 ألف مشاهدة أو 200 ألف مشاهدة تجعل القارئ يشعر بأنه يحصل على تفاصيل وتحليل لا يجدهما في مكان آخر هي أكثر قيمة بالنسبة للصحيفة من خبر مسلٍّ ينتشر كالنار في الهشيم وقلّما يغري أحدا بالاشتراك، هذا إن أغرى من أحد أصلا.

ثم يعترف التقرير في فقرة لاحقة بأن «تحقيق التوازن المطلوب صعب»، فنحن لا نبحث عن اعتبار حجم الجمهور دليلا على قيمة العمل الصحفي ولا نحن نريد العودة للأيام التي كنا نقنع فيها أنفسنا بأن المادة الصحفية قيّمة لمجرّد أنها نُشرت على صفحات ذا نيويورك تايمز»

نموذج لحاجات القراء

حيرة شبيهة انتهت بمسؤول النمو الرقمي السابق بالخدمة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي، ديميتري شيشكين، إلى تصميم نموذج لحاجات القراء بعد أن لَحِظ أن 70 في المئة من المحتوى المنتج موجه لتقديم «المستجدات»، بينما عدد مشاهدات هذه «المستجدات» لا يتجاوز 7 في المئة! أي إن جهد المؤسسة الإعلامية في واد وما يبحث عنه جمهورها في واد آخر.

لتحقيق «التوازن الصعب» بكلمات نيويورك تايمز، اقترح شيشكين نموذجا لحاجات القراء ينقسم إلى حاجات «عاطفية» وأخرى «عملية». ووضع في قسم الحاجات العاطفية «الإلهام» و«التسلية» و«التعلّم»، وفي قسم الحاجات العملية «تتبع المستجدات»، و«معرفة الاتجاهات السائدة» (تريندز)، و«استكشاف آفاق جديدة».. (سيُحدّث شيكشكين تقسيم هذا النموذج لاحقا منهجيا، لكن من دون الخروج عن هذه التصنيفات كثيرا.

يعطي شيشكين مثالا قويا على تغيير مقاربة المؤسسة في التعاطي مع الموضوعات لتستطيع جذب فئات مختلفة بدلا من تركيزها على تقديم الموضوعات في صيغة مستجدات جافة، بخبر فوز إيمانويل ماكرون بأول عهدة رئاسية له سنة 2017.. «هذا الخبر قد لا يكون مهما لقرّاء في دول عديدة من العالم بهذا الشكل؛ لذا قدمنا الخبر من زاوية أن ماكرون هو أصغر الرؤساء في العالم، والأصغر منذ نابليون بونابارت في فرنسا، إلى جانب لائحة بأصغر زعماء العالم سنا».

القفز على غوغل

في الواقع، تظل الشبكات الإعلامية الكبرى مثل بي بي سي والجزيرة وسي أن أقدر على مواجهة تحديات محركات البحث وجدران عمالقة التكنولوجيا من غيرها، ولا سيما بالرهان على سمعتها ورصيدها لتحويل قرائها إلى مشتركين وربطهم مع تطبيقاتها الهاتفية أو خدماتها على مواقعها على الإنترنت مباشرة، ثم الذهاب لغزو قاعدة جديدة من القراء، وربطهم من جديد مباشرة بخدماتها.

بالمقابل، تواجه وسائل الإعلام

يمكن للصحافة أن تلعب مع الكبار بأساليبهم. يكفي أن تفهم رغبات الجمهور الخاص بها وتقسمه إلى فئات وتقطع مع فكرة النظر إلى الجمهور على أنه كتلة صمّاء لوجوه متشابهة، مع اقتراح خدماتها الخاصة يقدم تجربة إبحار في الأخبار ماتعة وتستبق بقدر الممكن ما يبحث عنه قرّاؤها.

الأصغر حجما التي تعتمد على الزيارات القادمة من محركات البحث والشبكات الاجتماعية تحديا أصعب؛ فتجد نفسها في حرب مفروضة مع كبار السوق، سواء من شركات التكنولوجيا أو الشركات الإعلامية المنافسة.

لا يوجد حل سحري لوضع معقد، ولا يمكن للصحافة أن تصعد إلى برج عاجي وتنتظر توافد المريدين، لكن بإمكانها القفز على جدران الكبار بالتزام بعض المبادئ:

- تقديم محتوى رفيع وعالي

الجـودة.

- الحـرص على إنتـاج محتويـات «تُسـتهلك بالكامـل».

- تحليـل البيانـات الخاصـة بسـلوك القـرّاء وأنمـاط اسـتهلاك المحتـوى (متـى وكيـف ولكـم مـن الوقـت....) وترتيـب نتائـج عـن ذلـك.

يمكـن للصحافـة أن تلعـب مـع الكبـار بأسـاليبهم.. يكفـي أن تفهـم رغبـات الجمهـور الخـاص بهـا وتقسـمه إلـى فئـات وتقطع مـع فكـرة النظـر إلـى الجمهـور على أنـه كتلـة صمّـاء لوجـوه متشـابهة، مـع اقتـراح خدماتهـا الخاصـة (تطبيـق هاتفـي) يقـدم تجربـة إبحـار في الأخبـار ماتعـة وتسـتبق بقـدر الممكـن مـا يبحـث عنـه قرّاؤهـا.

لا تحتـاج الصحافـة للركـض وراء علامـات الإعجـاب والانتشـار على حسـاب الجـودة، إذا التزمـت فعليّا بالجـودة، ودافعـت بعـد ذلـك عن حقوقهـا في الملكيـة الفكريـة، ولا سـيما لـدى الجيـل الجديـد مـن محـركات البحـث التحاوريـة (كوبايلـوت، تشـات جـي بـي تـي، جيمينـاي)، التـي لـم تعـد تنقـل القـارئ إلـى الموقـع أصلا، وإنمـا تحبسـه عندهـا وتطعمـه مـن أخبـارك!

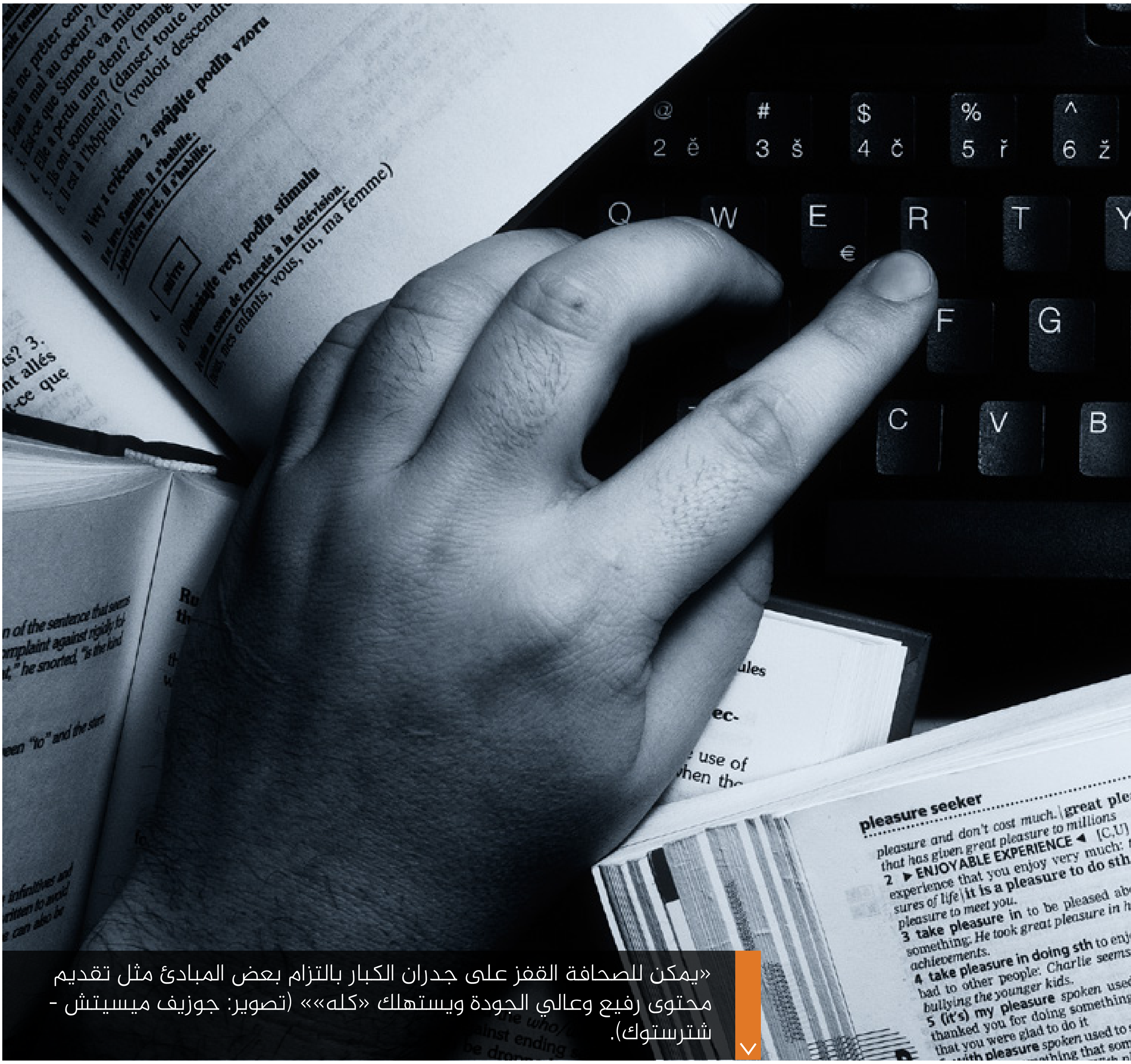

«يمكن للصحافة القفز على جدران الكبار بالتزام بعض المبادئ مثل تقديم محتوى رفيع وعالي الجودة ويستهلك «كله»» (تصوير: جوزيف ميسيتش - شترستوك).

كيف تؤلف كتابا في الصحافة؟

نوا زافاليتا

عـادة مـا يسـعى الصحفيـون إلـى توثيـق أعمالهـم بيـن دفتـي كتـاب، فيكتفـون بجمـع أعمالهـم القديمـة دون رؤيـة سـردية أو قيمـة علميـة. الصحفـي نـوا زافاليتـا الـذي جـرب تأليـف كتـب استقصائية، يقـدم إرشـادات للاحتفـاء بالمعلومات لا بالسـير الشـخصية.

ليـس لـدى الصحفـي طمـوح فـردي في مجـال الفكـر أكبـر مـن جمـع جـزء كبيـر مـن خبرتـه وأعمالـه في كتـاب مـن تأليفـه.. ذاك الشـعور الغريـب بأنـك سـتغير العالـم بكتابتـك، مـع أنـك في الواقـع لـن تغيـر شـيئا، أو ربمـا سـينتهي بكتابـك الأمـر أن تناقـش أفـكاره مـع عـدد قليـل مـن المهتميـن، وإن حـدث ذلـك فقـد كان الأمـر يسـتحق العنـاء.

اعتـاد الشـاعر والبطـل الثـوري الكولومبـي خوسـيه مارتـي أن يوصـي أصدقـاءه المقربيـن بعبـارة: «ثلاثـة أمـور ينبغـي لكل إنسـان أن يفعلهـا في حياتـه، أن يـزرع شـجرة وأن ينجـب ولـدا وأن يكتـب كتابـا».. بالنسـبة إلـيّ فليـس لـدي أولاد، أحـب الأشـجار، لكننـي لـم أزرع واحـدة قـط، وهكـذا قضيـت مـا مضـى مـن عمـري أروي وأؤلـف ثلاثـة كتـب.. مـا زلـت في الثانيـة والأربعيـن وأتطلـع إلـى إصـدار مزيـد مـن المؤلفـات في السـنوات المقبلـة.

«جحيـم خافييـر دوارتـي» الـذي عرضـتُ فيـه سـجلات عـن حكومـة فاسـدة في خليـج المكسـيك، و«الباحثـون» الـذي ضمّنتـه تقاريـر عـن تجـارة المخـدرات والاختفـاء القسـري، وعـائلات تبحـث عـن أبنائهـا الذيـن راحـوا مثـل «أضـرار جانبيـة» للفسـاد الأمنـي والحرب على تجـارة المخـدرات، وثالثهـا «إمبونـي مكـس.... جرائـم بلا عقـاب وعقـاب بلا جريمـة»، الذي يعطـي عنوانـه فكـرة جيـدة عما يتنـاولـه الكتـاب.

لـم أعـرف إلـى اليـوم أحـدا مـن الصحفييـن -بمـن فيهـم أنـا- لا تسـتهويه مركزيـة الـذات أو الأنـا، أو ليـس يهمـه في آخـر عمـره حيـن يقـرر التقاعـد، أن يُخلّـد اسـمه في الكتـاب الأكثـر مبيعا بالمكتبـات الكبـرى، أو مـع الكتـب الأكثـر ظهـورا في خانـة البحـث بمكتبـة جامعتـه أو مدينتـه.

لكـن مركزيـة الـذات هـذه بالنسـبة إلـى الصحفـي كثيـرا ما تكـون سـببا في ارتـكاب الأخطـاء؛ فليـس هنـاك مـا هـو أكثـر رتابـة وأقـل ربحـا للناشـرين مـن الكتـب التـي تكـون مادتهـا الأساسـية مذكـرات الكاتـب نفسـه.. كان كتـاب المذكـرات الوحيـد الـذي أتممـت قراءتـه بسـعادة خالصة هـو «أن تعيـش لتـروي» لصاحـب نوبـل الكولومبـي غابرييـل غارسـيا ماركيـز.. أمـا بقيـة مذكـرات الصحفييـن التـي قرأتها فانتهـى بهـا الأمـر هديـة لصديق أو ضاعـت منـي هنـا أو هنـاك.. لقـد كان وجودهـا في مكتبتـي خطـأ غيـر مقصـود، وقـد تاهـت في غياهـب النسـيان.

خطـأ آخـر نقـع فيـه نحـن الصحفييـن في أمريكا اللاتينيـة وأوروبـا أن نجـري عمليـة نسـخ ولصـق لأفضـل أعمالنـا الصحفيـة ثـم نرسـلها إلـى المطبعـة مـع وضـع غلاف أنيـق وصـورة جذابـة.. هـذه الأعمـال المختـارة المجمّعـة في كتـاب لا تعـدو عـن كونهـا زهـرة تعيـش يوما واحـدا، وفي أفضـل الأحـوال قـد تأخـذ مكانهـا أسـبوعين على واجهـات المكتبـات الأدبيـة، ولكنهـا تنطـوي على خطـورة أن تتحـول إلـى مـا يشـبه «صحيفـة الأمـس».

أظن، أو هكذا تملي علي خبرتي، أن ثمة قواعد أساسية غير مكتوبة ينبغي لكل كاتب أن يتبعها لدى تأليفه كتابا في الصحافة، سواء أكان يتناول سيرة ذاتية لأحد رجالات السياسة، أم لنجم من نجوم الروك، أم لممثلة أم لرجل دين أو أحد الملوك، لا بد أن أحدا ما في وقتنا الحالي يُعِد كتابا عن سيرة الملكة إليزابيث، وفي خندق آخر يعمل على تجميع كتاب عن تنصيب كارلوس الثالث، أظن أن على الكاتب أن يراعي فصولا وجوانب متنوعة من حياة بطله في الكتاب.

لم أعرف إلى اليوم أحدا من الصحفيين -بمن فيهم أنا- لا تستهويه مركزية الذات أو الأنا، أو ليس يهمه في آخر عمره حين يقرر التقاعد، أن يُخلّد اسمه في الكتاب الأكثر مبيعا بالمكتبات الكبرى، أو مع الكتب الأكثر ظهورا في خانة البحث بمكتبة جامعته أو مدينته.

عليك أن تُعِدّ فهارس من المقابلات التي تدور حول موضوع القضية التي تتناولها، من أقدمها إلى أحدثها، إذا كان بطلك قد توفي فسوف تعيد نسج حياته وأحداثها بحوارات ومقابلات مع زوجته وإخوته وأبنائه، مع موظفيه السابقين ومساعديه وسائقه الخصوصي، مع خصومه وأعدائه كذلك، مع طلابه إن كان له طلاب، وهكذا.

الأهم أن عليك كتابة فصول لم تُروَ من قبل، ذلك إذا أردت أن يحقق كتابك النجاح؛ أي أن يكون ما يقارب 35 أو 40 بالمئة من صفحات كتابك مذكرات وقصصا ومقابلات وأحداثا لم يسبق للصحافة المحلية أو العالمية أن روتها، وبغير ذلك ستكون قد وقعت في فخ النسخ واللصق لكل ما روي سابقا.

أفضل سيرة ذاتية قرأتها ويمكن اعتمادها مرجعا، هي كتاب الصحفي الأمريكي جون لي أندرسون «تشي غيفارا.. عن الثوري الكوبي، أرجنتيني الجنسية، تصوير حقيقي وعميق للاشتراكية الكوبية»، وكذلك كتابه الآخر «الديكتاتور

«ثلاثة أمور ينبغي لكل إنسان أن يفعلها في حياته، أن يزرع شجرة وأن ينجب ولدا وأن يكتب كتابا الشاعر والبطل الثوري الكولومبي خوسيه مارتي». (نصب خوسيه مارتي في مكسيكو سيتي - ويكيبيديا).

«ما من صحفي آخر ينافسك على سبق صحفي، عليك أن تروي بتمهلِ ساعة رملية، وأن تختار بوعي كامل كل كلمة من شأنها زخرفة نصك النهائي» (شترستوك).

والشياطين الآخرون» الذي يقدم سيرة رائعة عن هوغو تشافيز وانهيار فنزويلا.

وحتى إن ظننت أنك تعرف كل شيء عن شخصيتك المركزية في الكتاب، دائما ما يكون هناك أمر جديد لتحكيه، لتتحدث عنه أو لتتعقب مساره، أن تعيد السفر إلى تلك المدن والبلاد التي نقلت الأخبار منها حين كنت مراسلا، ومثل «صندوق باندورا» دائما ما ستظهر لك المفاجآت.. التاريخ يتجدد كل يوم، يعيد نفسه ويلتف على الأحداث كل 24 ساعة، مثل الكرة الأرضية تماما.

عليك كذلك أن تعتني بلُغة روايتك وأن تسرد بتأن قدر المستطاع، ما تطبعه الآن في عزلتك على حاسوبك الشخصي مع كوب من القهوة وسيجارة بين أصابعك ليس نصا للجريدة اليومية، لا داعي للعجلة فلن تغلق المطبعة الآن، وما من صحفي آخر ينافسك على سبق صحفي، عليك أن تروي بتمهل ساعة رملية، وأن تختار بوعي كامل كل كلمة من شأنها زخرفة نصك النهائي.

«تكمن أهمية النص في أن تكون كل كلمة فيه ضرورية، ألا تدع مجالا لأحد أن يتساءل عن الجدوى من استخدام كلمة ما في موضع معين، أن تكون كل كلمة جديرة بمكانها في النص»، يقولها ويرددها دائما الأستاذ الكبير في مؤسسة غابو، مارتين كاباروس.

> **خطأ آخر نقع فيه نحن الصحفيين في أمريكا اللاتينية وأوروبا أن نجري عملية نسخ ولصق لأفضل أعمالنا الصحفية ثم نرسلها إلى المطبعة مع وضع غلاف أنيق وصورة جذابة. هذه الأعمال المختارة المجمّعة في كتاب لا تعدو عن كونها زهرة تعيش يوما واحدا.**

عليك أيضا أن تأخذ بالحسبان خلق توازن صحي في الرسالة الأيديولوجية التي يحملها كتابك، ما الذي أعنيه؟ إن الصحفي ليس قرصا صلبا في الحاسوب، وليس خوارزمية في أنظمة فيسبوك وإنستغرام تتصرف بما يناسب الجمهور أو القراء.. بصفتك كاتب سيرة ذاتية أو مؤرخ فإن لديك مشاعر وتوجهات أو اهتمامات أيديولوجية وسياسية، وهذا ما علينا أن نزيح منه ما استطعنا إلى خارج النص قبل طباعته.

أن تنحّي كل مشاعر التعاطف والإعجاب أو الاستنكار والانتقاد والشفقة والغيرة التي تحس بها تجاه بطل الكتاب.. نريد أن يحقق كتابنا المبيعات بناء على ما يقدمه من إسهامات سردية لحقائق ووقائع عميقة لم تنشر قبل ذلك، وليس بما يتضمنه من افتراءات أو انتقادات وشتائم مشفّرة في ثنايا النص.

إذا كان كتابك الصحفي عبارة عن مجموعة من التقارير أو السجلات أو السير الذاتية المصغرة لمجموعة متنوعة من الشخصيات التي عاشت وعملت في مدينتك أو بلدك فمن الضروري والجوهري هنا أن تبحث عن خيط ناظم، أن تُجري ربطا للظروف والوقائع بأسلوب روائي يعطي فسيفساء تلك الحوادث والتقارير جسدا وشكلا.

أعني هنا أنه إذا كان موضوعك عن الفساد أو الاحتيال مثلا، فلا داعي للانزلاق إلى ذكر نص آخر عن البيئة لمجرد أنه تقرير جيد أو قصة رائعة.. إذا كانت فصول كتابك تتناول موضوعات انعدام الأمن وتجارة المخدرات أو مافيات الاتجار بالبشر أو تهريب المهاجرين فليس لك أن تأتي وسط ذلك كله بتقرير اقتصادي عن التضخم لمجرد أنه فاز بجائزة ما، إن هذه النصوص الرائعة التي ليست لها علاقة بموضوع كتابك تنال من جودة الفسيفساء التي رسمتها في تقاريرك وحكاياتك.

عليك ألا تخاف أو تخجل من أن تحذف فصلا كاملا من كتابك -حتى ولو كنت تدرك قيمة ذلك النص وحتى لو كان امتدادا لنص قديم احتل ثمانية أعمدة في الصحيفة التي كنت تعمل بها- إذا كانت المعلومات الواردة فيه مماثلة أو تكرارا لما تضمنه فصل آخر في كتابك الذي يُنشر لأول مرة.. إن الكلام الجديد والمعلومات الآنية وحدها ما يمكن أن يعزز كتاباتك ويزيدها خصوبة، أكثر من أي نص منشور آخر مهما كانت قيمته.

من المهم جدا أن تتوقف عند موضوع كتابك، أن تحرص بشدة على ألا يكون مرآة لنص آخر قديم.. قبل التفكير في فهرس الكتاب ينبغي لك إجراء بحث عميق في المنشورات الصحفية والأكاديمية والمكتبية، للتأكد مما نُشر في هذا الموضوع الذي أنت بصدد معالجته وتظن أنه لم يتطرق إليه أحد بعد؛ لذلك ابدأ بمراجعة أعمال زملائك، دور النشر، ابحث في الصحافة الأجنبية والمكتبات الجامعية عما نُشر في هذا الموضوع.

وهنا ملاحظة مهمة جدا، إذا كنت تعمل على مختارات من نصوص روائية وصحفية، وأخذت في تنسيق تلك المجموعة المختارة، فلا تخف ولا تخجل من تنحية أي نص لزميل أو صديق أو حبيب، إذا كان نصه لا يفي بمعايير الجودة التي تعتمدها لكتابك، فإن القارئ مستقبلا سيُقدر لك هذه الالتفاتة بالتأكيد.

«إن الكلام الجديد والمعلومات الآنية وحدها ما يمكن أن يعزز كتاباتك ويزيدها خصوبة، أكثر من أي نص منشور آخر مهما كانت قيمته» (تصوير: لاماي براسيتسوان - شترستوك).

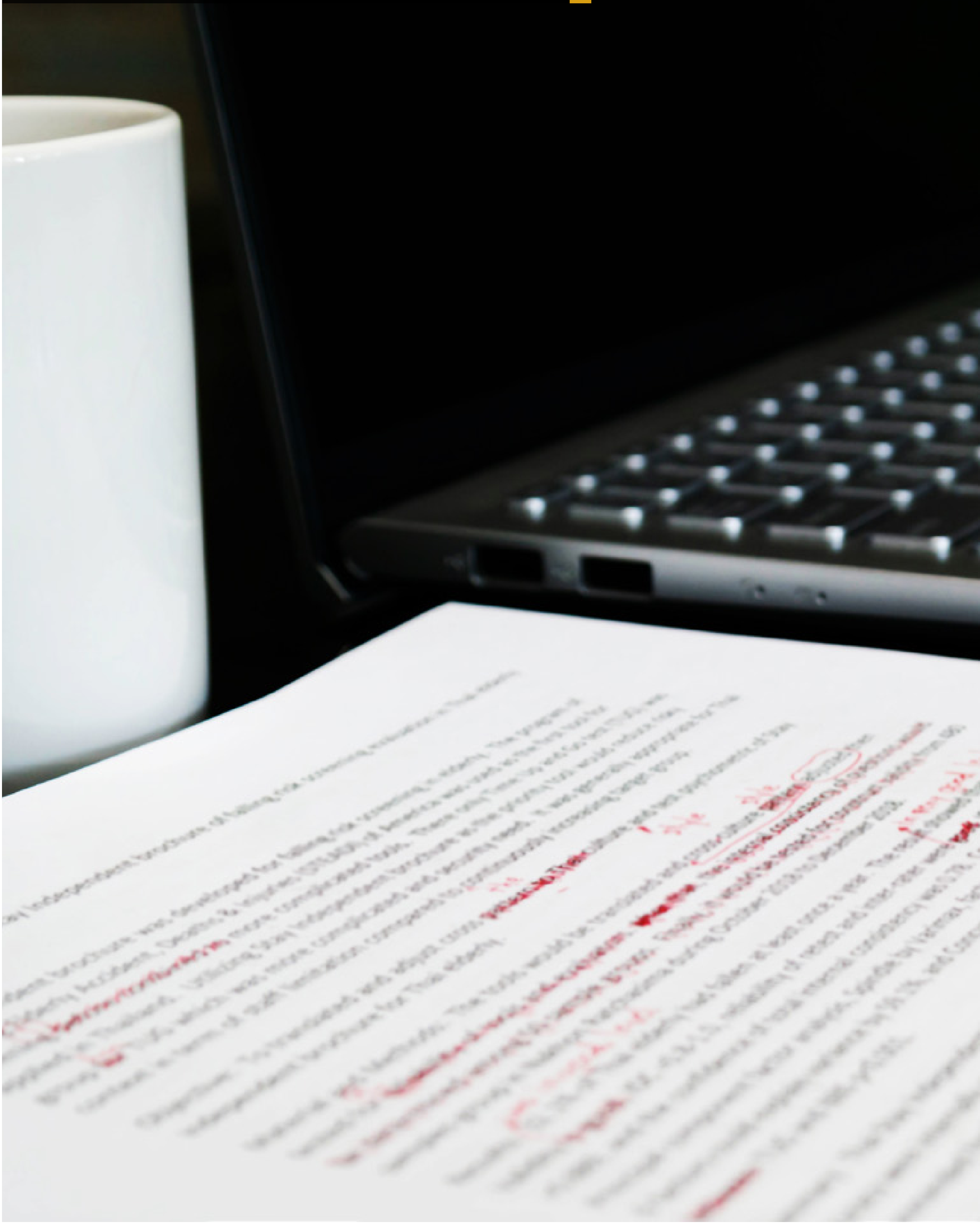

التنظيم الذاتي.. أرضية لـ «عقد اجتماعي» جديد مع جمهور الصحافة

مجلة الصحافة

تبرز فكرة التنظيم الذاتي كحل توفيقي يسمح بمواصلة ممارسة الصحفيين المهنيين لوظائفهم الحيوية، مع التأقلم مع التحديات والإكراهات المستجدة. ويعني التنظيم الذاتي في مجال الصحافة بالخصوص قبول المهنيين تحمّل نصيبهم من المسؤولية تجاه الجمهور، والمساهمة في تحسين جودة المحتوى الصحفي وضمان استقلاليته وتصحيح الأخطاء وجبر الأضرار الناجمة عنه.

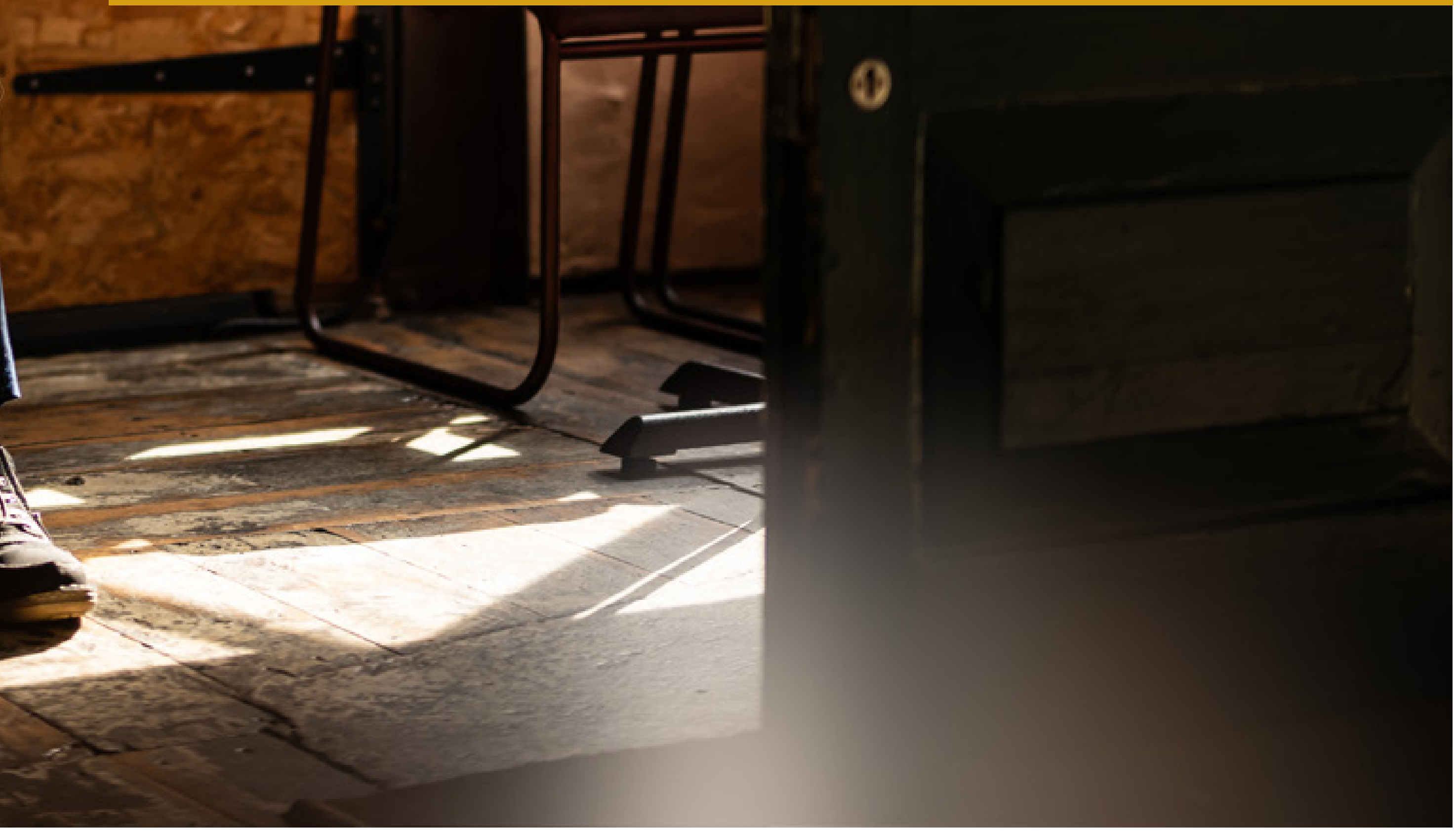

«مهما كانت التشريعات القانونية خاضعة للرقابة الديمقراطية ومطبقة من طرف قضاء مستقل، تظل تهديدا محتملا لحرية الصحافة» (تصوير: ليون نيل - غيتي).

إذا كان وجود مهنة الصحافة يرتبط بعلاقة جدلية بين أضلع المثلث الذي يشكله كل من الصحفيين والمعلنين والجمهور، فإن التحوّل العميق الذي فرضته الثورة الرقمية على طبيعة العلاقة بين هذه الأطراف لم يقتصر على تغيير وظائف وأدوار المهنيين والمعلنين، بل شمل هذا التغيير أدوار ووظائف الجمهور، إذ لم تفضِ الثورة التكنولوجية فقط إلى تطور الممارسة الصحفية، بل إلى إحداث شرخ عميق بين وسائل الإعلام والجمهور، والتشكيك الدائم في مصداقية الصحفيين(1).

لقد أصبحت الصحافة فعليا تحت الرقابة الدقيقة والدائمة للجمهور، وباتت تتعرّض - سواء أرغبت في ذلك أم لا - للتقييم والنقد والتدقيق من طرفه، كما أصبحت شرعية الصحافة تحت الفحص والمراجعة بما أنها تتغذى أساسا من تعاقد مع المجتمع يقضي بتمتيعها بالحرية في مقابل تزويدها إياه بالمعلومات والآراء التي يحتاج إليها (2).

لقد بات من الطبيعي أن يرغب جمهور الصحافة في الحصول على ضمانات في مقابل مواصلة وثوقه في صحة المحتوى الذي ينشره الصحفيون، وهو ما توفره مدونات السلوك من خلال وضع قواعد خاصة بطريقة إنتاج المحتوى الصحفي، ووضع مساطر واضحة تسمح للجمهور بالتأكد من صحة هذا المحتوى، وهو ما يعتبر بمثابة «ضمان للجودة» (assurance de qualité)(3).

وبالنظر إلى التحديات الجديدة التي فرضها التطور الرقمي على نشر وتداول المحتوى الصحفي، يوفر أسلوب التنظيم الذاتي إمكانية الوصول إلى «تحكيم» بين حقوق قد تبدو في سياقات معينة كما لو أنها متعارضة، أي حق الصحافة في الاستقلالية تجاه السلطات الأخرى، وحق الجمهور في التظلم والانتصاف والتشكي من تجاوزات وأخطاء الصحفيين.

> **لقد أصبحت الصحافة فعليا تحت الرقابة الدقيقة والدائمة للجمهور، وباتت تتعرّض، سواء أرغبت في ذلك أم لا، للتقييم والنقد والتدقيق من طرفه.**

الجمهور.. سلطة خامسة

تقدّم بعض الأدبيات المهتمة بمجال الإعلام الجمهور كسلطة خامسة جديدة تمارس - ما ظل إلى وقت قريب - اختصاصا حصريا للصحافة، من «سيطرة» على النقاش العام واضطلاع بوظيفة «حارس البوابة».. هنا يصبح التنظيم الذاتي أكثر من مجرد «تنازل» طوعي من جانب الجسم الإعلامي لتقديم خدمة إضافية للجمهور وإشراكه في عملها، بل يتحوّل إلى تعاقد قائم على ميزان قوة جديد تميل كفته تدريجيا لمصلحة الجمهور.. فمن خلال الإنترنت والشبكات الاجتماعية والفضاء الرقمي المفتوح أصبح الجمهور صاحب كلمة مسموعة في اختيار الموضوعات، وصنع أجندة النقاش العمومي، وممارسة الرقابة على المحتوى الصحفي بالنقد والتقييم، وكشف الأخطاء وفضح الاختلالات.

كما برزت نظرية المشاركة الديمقراطية من واقع الخبرة العملية كاتجاه إيجابي نحو ضرورة وجود أشكال جديدة في تنظيم وسائل الإعلام - في الدول الاسكندنافية بالخصوص - محاولة تجاوز النقائص التي أبانت عنها النظريات الكلاسيكية مثل نظرية الحرية ونظرية المسؤولية الاجتماعية.. وتتلخص مبادئ هذه النظرية بالخصوص في حق المواطن في الوصول إلى وسائل الإعلام واستخدامها، وفي التأكيد على أولوية خدمة الجمهور على خدمة أية مصالح أخرى بما فيها مصالح المؤسسات الإعلامية.. بل إن هذه النظرية تعتبر حرية الرأي والتعبير أهم من أن تترك للمهنيين.

مهما كانت التشريعات القانونية خاضعة للرقابة الديمقراطية ومطبقة من طرف قضاء مستقل، تظل تهديدا محتملا لحرية الصحافة، حيث تعمد السلطات في غالب الأحيان إلى تجاوز الغايات النبيلة لمثل هذه التشريعات، مثل حماية حقوق وحريات أخرى أو منع السقوط في تهديدات للأمن القومي، وتطوير منظومة قواعد للتنظيم الذاتي من طرف المهنيين، لا يتحقق إلا في ظل تطوير منظومة مقابلة لامتناع السلطات عن التدخل في الشؤون المهنية وتهديد حرية الصحافة.

من هنا تبرز فكرة التنظيم

الذاتي كحل توفيقي يسمح بمواصلة ممارسة الصحفيين المهنيين لوظائفهم الحيوية، مع التأقلم مع التحديات والإكراهات المستجدة.. ويعني التنظيم الذاتي في مجال الصحافة بالخصوص قبول المهنيين تحمّل نصيبهم من المسؤولية تجاه الجمهور، والمساهمة في تحسين جودة المحتوى الصحفي وضمان استقلاليته وتصحيح الأخطاء وجبر الأضرار الناجمة عنه.. وتقوم فكرة التنظيم الذاتي أساسا على مبادرة المهنيين إلى القيام بجهد إرادي يفضي إلى وضع قواعد سلوك تحقق أهدافا على رأسها حماية حقوق ومصالح غير المهنيين دون حاجة إلى القواعد القانونية أو المساطر القضائية.

> **يعني التنظيم الذاتي في مجال الصحافة بالخصوص قبول المهنيين تحمّل نصيبهم من المسؤولية تجاه الجمهور، والمساهمة في تحسين جودة المحتوى الصحفي وضمان استقلاليته وتصحيح الأخطاء وجبر الأضرار الناجمة عنه.**

تعاقد اجتماعي مع الصحافة

يساهم التنظيم الذاتي في الحفاظ على مصداقية المؤسسات الإعلامية في أعين الجمهور، وهو ما يكون مفيدا أكثر في الديمقراطيات الناشئة، حيث تعتبر الصحافة المستقلة عملة نادرة.. وتتجسد فائدة التنظيم الذاتي في إقناع الجمهور بكون الصحافة المستقلة ليست فوق المساءلة ولا منفلتة من الرقابة القانونية، بل هناك سبيل ثالث لإبقائها تحت المساءلة دون المس باستقلاليتها عبر السلطات التقليدية الأخرى، أي مساءلة

«لا تقتصر الديمقراطية على الجوانب الإجرائية من انتخابات وحملات ونقاش سياسي مفتوح، بل تعني أيضا ثقافة مشتركة تخوّل أفراد المجتمع خوض النقاش بطريقة عقلانية ومنضبطة لقواعد واضحة» (تصوير: ليف رادين - شترستوك).

الصحفيين دون أن يؤول ذلك إلى السلطات التي يفترض فيهم مراقبتها ومساءلتها (4).. فالديمقراطية لا تقتصر على الجوانب الإجرائية من انتخابات وحملات ونقاش سياسي مفتوح، بل تعني أيضا ثقافة مشتركة تخوّل أفراد المجتمع خوض النقاش بطريقة عقلانية ومنضبطة لقواعد واضحة.. والسلطات الحكومية - مهما كانت طريقة تنصيبها ديمقراطية وشفافة - تظل فاعلة سياسيا لديها انتماءات وقناعات فكرية وانحياز واضح تدافع عنه، وبالتالي لا تُعتَبر الطرف المؤهل للسهر على وضع قواعد النقاش العقلاني والمنتج واحترامه.. بكل اختصار، يمكن القول إن الديمقراطية لا تتناسب بتاتا مع نظام سياسي تسهر فيه السلطات على مراقبة الصحافة، والتنظيم الذاتي وحده يوفر حلا لمعضلة الاستقلال عن السلطات مع الخضوع للمساءلة أمام المجتمع.

> **يساهم التنظيم الذاتي في الحفاظ على مصداقية المؤسسات الإعلامية في أعين الجمهور، وهو ما يكون مفيدا أكثر في الديمقراطيات الناشئة، حيث تعتبر الصحافة المستقلة عملة نادرة.**

ويسعى المهنيون من وراء اعتماد خيار التنظيم الذاتي إلى إبقاء قنوات الحوار والنقاش مفتوحة مع الجمهور، بطريقة مستقلة وخالية من الضغوط والإكراهات. ولا يهم الأمر هنا سوى مجتمع الصحفيين بمختلف مسؤولياتهم المهنية، ومالكي المؤسسات الإعلامية، الذين يعتبرون المعني الأول باستقلالية الصحافة، وإبقاء الفاعلين السياسيين في الحياد من خلال شملهم بضمانات الانتصاف والتظلم في حال تعرضهم للإساءة أو الاستهداف، إلى جانب قادة المجتمع المدني وممثلي التنظيمات المهنية والنقابات والمنظمات الدينية وجماعات الضغط (5)..

ويمكن إجمال الحوافز التي تدفع الصحافة إلى اختيار نهج التنظيم الذاتي في كونه (6):

1- يضمن الحرية التحريرية؛

فائدة انتشار الوعي بآليات التظلم والانتصاف غير قاصرة على الجمهور وحده، بل يساهم ذلك في تجويد المحتوى الصحافي نفسه؛ لأن صاحب المصلحة أو المعني المباشر بالمحتوى المنشور يعتبر الأقدر على اكتشاف الخطأ وتصحيح المعلومة (شترستوك).

2- يحد من تدخل السلطات؛
3- يوفر ضمانة لجودة المحتوى؛
4- يدل على خضوع الصحافة للمساءلة
5- يخوّل للجمهور منفذا للوصول إلى وسائل الإعلام.

بالمقابل، تكمن أهمية المساطر التي يوفرها التنظيم الذاتي للجمهور من أجل التظلم والانتصاف، في طابعها المجاني، عكس المساطر القضائية التي غالبا ما تتطلب تحمل كلفة مادية للاستفادة من خدمات المحامين ودفع الرسوم... كما تتسم هذه المساطر بسرعتها وفعاليتها مقارنة بمسارات الانتصاف أمام المحاكم، علاوة على الربح المعنوي الذي يحققه المشتكي، والمتمثل في الاعتراف بالضرر من داخل الجسم المهني ونشر هذا الاعتراف بشكل علني.

> **يتعلّق الأمر، حين نتحدث عن الوسيط بأحد أفراد هيئة تحرير المؤسسة الإعلامية، الذي يتولى تمثيل الجمهور داخل غرفة التحرير، ونقل مطالبهم وانتظاراتهم وتظلماتهم، وإسماع صوتهم بكل استقلالية وتجرد.**

التربية الإعلامية ركن صحة التنظيم الذاتي

فعلية الضمانات التي يمثلها التنظيم الذاتي للجمهور تستدعي تحقيق بعض الشروط، لعل أولها الإخبار والتوعية بوجود مدونات السلوك ومساطر الاستفادة منها أمام الهيئات المختصة بالتنظيم الذاتي للمهنة.. الفاعلون السياسيون والنقابيون والمدنيون، والمشاركون في المجال العام سواء بتقلد المسؤوليات أو المشاركة الطوعية في النقاش أو الصراع السلمي، إلى جانب الجمهور بمعناه الواسع، كل هؤلاء يحتاجون إلى معرفة واضحة ودقيقة بالإمكانيات التي يتيحها التنظيم الذاتي، بهدف التحفيز من جهة على استهلاك المحتوى الصحفي والإقبال عليه والوثوق فيه، ومن جهة أخرى إدراك الضمانات التي يوفرها للحقوق والمصالح التي يمكن أن تكون مهددة من جانب الصحافة.

فالعلم بوجود هيئة وطرق معينة للتفاعل والاحتجاج والانتصاف في مواجهة المحتوى الصحفي يكاد يكون شرطا وجوديا لفعالية هذه الآليات.. وتعتبر الدول الاسكندنافية صاحبة أعلى معدلات الوعي بهذه الآليات من طرف المواطنين.. فيما يتذبذب مستوى الوعي في باقي أنحاء العالم بحسب مستوى الديمقراطية فيها، وحرص هيئات التنظيم الذاتي على التعريف بصلاحياتها والفرص التي تتيحها للجمهور.. ولا تقتصر فائدة انتشار الوعي بآليات التظلم والانتصاف على الجمهور وحده، بل يساهم ذلك في تجويد المحتوى الصحافي نفسه؛ لأن صاحب المصلحة أو المعني المباشر بالمحتوى المنشور يعتبر الأقدر على اكتشاف الخطأ وتصحيح المعلومة، وبالتالي تقديم خدمة عامة.

مجالس الصحافة.. حكم ذاتي للمهنة

تعتبر مجالس الصحافة الشكل الأكثر انتشارا من هيئات التنظيم الذاتي، ويتشكل هذا المجلس في الغالب من مهنيين منتخبين يتمتعون بالمصداقية والحياد والقدرة على تجسيد الضمير المهني بكل فعالية، والقيام بوظيفة الحفاظ على جودة المحتوى الصحفي، وحماية المهنة من تدخل السلطات، والتقليل من عدد الدعاوى المرفوعة ضد الصحفيين في المحاكم.. وقد ظهرت هذه المجالس الصحفية لأول مرة في السويد عام 1916، ثم تأسست فيما بعد في غالبية دول الاتحاد الأوروبي وبعض دول العالم (7)..

الوظائف الأساسية لمجالس الصحافة (8):

· تلقي الشكايات ضد الصحفيين؛
· دراسة الشكايات والتأكد من اندراجها في مجال اختصاص المجلس
· تعميق الدراسة في الشكايات عند التأكد من صحتها شكلا
· القيام بالوساطة بين المشتكي والمؤسسة الإعلامية المعنية
· اتخاذ قرارات على أساس قواعد السلوك المعتمدة
· تنبيه المؤسسات الإعلامية إلى أخطائها
· الحرص على شفافية ووضوح القرارات المتخذة وإعلانها للعموم
· تحليل المعطيات المتوفرة لتحديد مكامن الخلل في الممارسة المهنية
· اقتراح تعديلات في مدونات السلوك عند الحاجة
· الدفاع عن حرية الصحافة..

صحيح أن هيئات التنظيم الذاتي، من قبيل مجالس

الصحافة، لا تصدر أحكاما بالسجن ولا تملك الصلاحيات التي تتمتع بها المحاكم في مجال الزجر والعقاب، لكن أهم وأكبر عقوبة تستطيع هيئات التنظيم الذاتي إصدارها، هي «التوبيخ العلني» (la critique publique).. تستطيع المحاكم أيضا إلزام الشخص المدان أمامها بنشر الحكم الذي يتضمن عقوبة في حقه، وعلى حسابه الشخصي، في منابر أو منصات إعلامية معينة، لكن التوبيخ الذي يصدر عن الهيئة المهنية التي تتولى وظيفة التنظيم الذاتي، تظل أكثر «قسوة» وأثقل وزنا في مثقال الإنصاف المعنوي؛ ذلك أن المدان لا يملك أن يدعي التعرض للاستهداف أو الظلم من طرف قضاء غير مستقل أو غير عادل، بما أن العقوبة صدرت عن الجسم المهني الذي ينتمي إليه.

بل إن جل هيئات التنظيم الذاتي لمهنة الصحافة، تلزم المؤسسات الإعلامية بنشر العقوبات الصادرة في حقها في منصتها الخاصة نفسها.. بل إن لجنة الشكايات الخاصة بالصحافة البريطانية، تسجل أن أغلب الشكايات التي تصل إليها، ينتهي أمرها باتفاق ودي، لحرص مسؤولي هيئات التحرير على تجنب صدور عقوبة في حقهم، فيستجيبون لمطالب المتضررين بشكل تلقائي، والتي تكون في غالب الأحيان مطالب معنوية ترمي إلى الاعتراف بالضرر أو التصحيح، فيما تخلو جل القواعد الخاصة بهيئات التنظيم الذاتي من العقوبات المالية والغرامات.

الوسيط.... ممثل الجمهور في غرفة التحرير

إلى جانب مجالس الصحافة، توجد مؤسسة أخرى تضطلع بوظيفة التنظيم الذاتي لكن داخل المؤسسات الإعلامية في الغالب، وهي مؤسسة «الوسيط».. ويتعلّق الأمر بأحد أفراد هيئة تحرير المؤسسة الإعلامية، الذي يتولى تمثيل الجمهور داخل غرفة التحرير، ونقل مطالبهم وانتظاراتهم وتظلماتهم، وإسماع صوتهم بكل استقلالية وتجرد.

يعود أصل فكرة «الوسيط» إلى تطوّر تاريخي شهده مكتب الشكايات، والتي شهدتها الصحافة الأمريكية في وقت مبكر، حيث أحدثت جريدة «نيويورك وورد» الأمريكية، وظيفة شخص يتولى تلقي رسائل القراء وشكاياتهم وأسباب غضبهم، وينقل كل ذلك إلى هيئة التحرير كي تتفاعل معه.. وتطورت هذه الوظيفة تدريجيا خلال عقد العشرينيات، حيث أصبحت بعض الصحف في أمريكا واليابان تحوي لجنة خاصة، تقوم بمهمة تلقي ودراسة شكايات القراء، ثم تنقلها إلى رئيس التحرير(9).

الـ «أمبوديسمان» كلمة سويدية يراد بها المفوض أو الممثل، وهو شخص مكلف من البرلمان بمراقبة الإدارة والحكومة وحماية الأفراد وحرياتهم. وقد استحدثت السويد هذا النظام في دستورها لعام 1809 ليكون وسيلة لتحقيق التوازن بين الأفراد بين سلطة البرلمان والسلطة التنفيذية وللحد من تعسف هذه الأخيرة في استخدامها لامتيازاتها في مواجهة الأفراد، ومن أسباب ظهور هذا النظام في السويد هو ما عانته من صراعات بين الملك والبرلمان في تلك الفترة، فتارة ينتصر الملك فيستقل بالسلطة بلا منازع وتارة أخرى ينتصر البرلمان فتقيد سلطة الملك إلى أقصى حدها، وقد أدت هذه الفوضى إلى استحداث نظام يحقق التوازن بين هاتين السلطتين.. فظهر ما اصطلح عليه بالأمبودسمان والذي تطور حتى بات يطلق عليه اسم (حامي المواطن)، فهو الشخص الذي يلجأ اليه المواطن طالباً حمايته وتدخله إذا ما صادفته مشاكل أو صعوبات مع الحكومة أو الجهات الإدارية (10).

رغم أن الكلمة الأكثر شيوعا واستعمالا لوصف وظيفة «الوسيط» تعود إلى اللغة السويدية (ombudsman)، فإن التطبيق العملي لهذه المؤسسة ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية خلال عقد الستينيات، حين أحدثت جريدة « Courier-Journal» منصب الوسيط عام 1967، واختارت له صحافيا مخضرما، ومنحته صلاحية تدبير العلاقة مع القراء.. ثم جرى تكريس هذه المؤسسة أكثر عام 1970 على يد صحيفة «واشنطن بوست»، والتي أسندت إلى نائب رئيس التحرير ومهمة التواصل مع الجمهور ونقل شكاياته إلى غرفة الأخبار، وكتابة عمود قار ينقل فيه بكل استقلالية آراء وملاحظات القراء. ورغم التطور الكبير الذي شهدته هذه الوظيفة، وانتشاره في العديد من دول العالم، إلا أنها

تظل حكرا على المؤسسات. الإعلامية الكبرى والأكثر حرصا على سمعتها وثقة الجمهور فيها.

الوظائف الأساسية للوسيط:

يتولى الوسيط مهمة «مراقبة الجودة» داخل المؤسسة الإعلامية، والحرص على حقوق الجمهور من خلال

· ضمان إخباره بطريقة شفافة وواضحة ودقيقة إلى أقصى الحدود الممكنة

· ضمان الفصل بين الرأي والخبر؛

· الحرص على التعددية والاختلاف

· تصحيح الأخطاء المرتكبة؛

· منع المساس بحقوق وخصوصيات الأشخاص.

سلبيات التنظيم الذاتي.. سؤال الفعالية والجدوى

شكلت فكرة التنظيم الذاتي الحل الأمثل لتحقيق فكرة الصحافة الحرة والمستقلة والمتنوعة والتعددية، التي تمكن الجمهور من الحصول على المعلومات بشكل أكثر قربا من الاكتمال، وفي الوقت نفسه العثور على الصيغة الملائمة لوضعية السلطة في هذا المجال، أي ضمان حيادها ونفاذ قواعدها في الوقت نفسه (11).

لكن التنظيم الذاتي لا يخلو من سلبيات ومؤاخذات، ذلك أنه قد يتحوّل إلى نقيض ما يرد منه، أي التأسيس لدكتاتورية جديدة تنتصر لمصالح المهنيين على حساب المصلحة العامة وحقوق الجمهور.. ولتجاوز هذه العقبة، ينبغي للتنظيم الذاتي أن يراعي مجموعة من الشروط من بينها[12]:

· الاستقلالية عن كل من السلطة والمصالح التجارية والفئوية.

· وضع أسس التنظيم عبر مسار تشاوري مفتوح وشفاف.

· الاحتكام الى الديمقراطية في اختيار الأعضاء واتخاذ القرارات.

· ضمان تمثيلية المجتمع المدني داخل الهيئة المكلفة بالتنظيم الذاتي.

· اعتماد مدونة للسلوك يتم الاحتكام إليها.

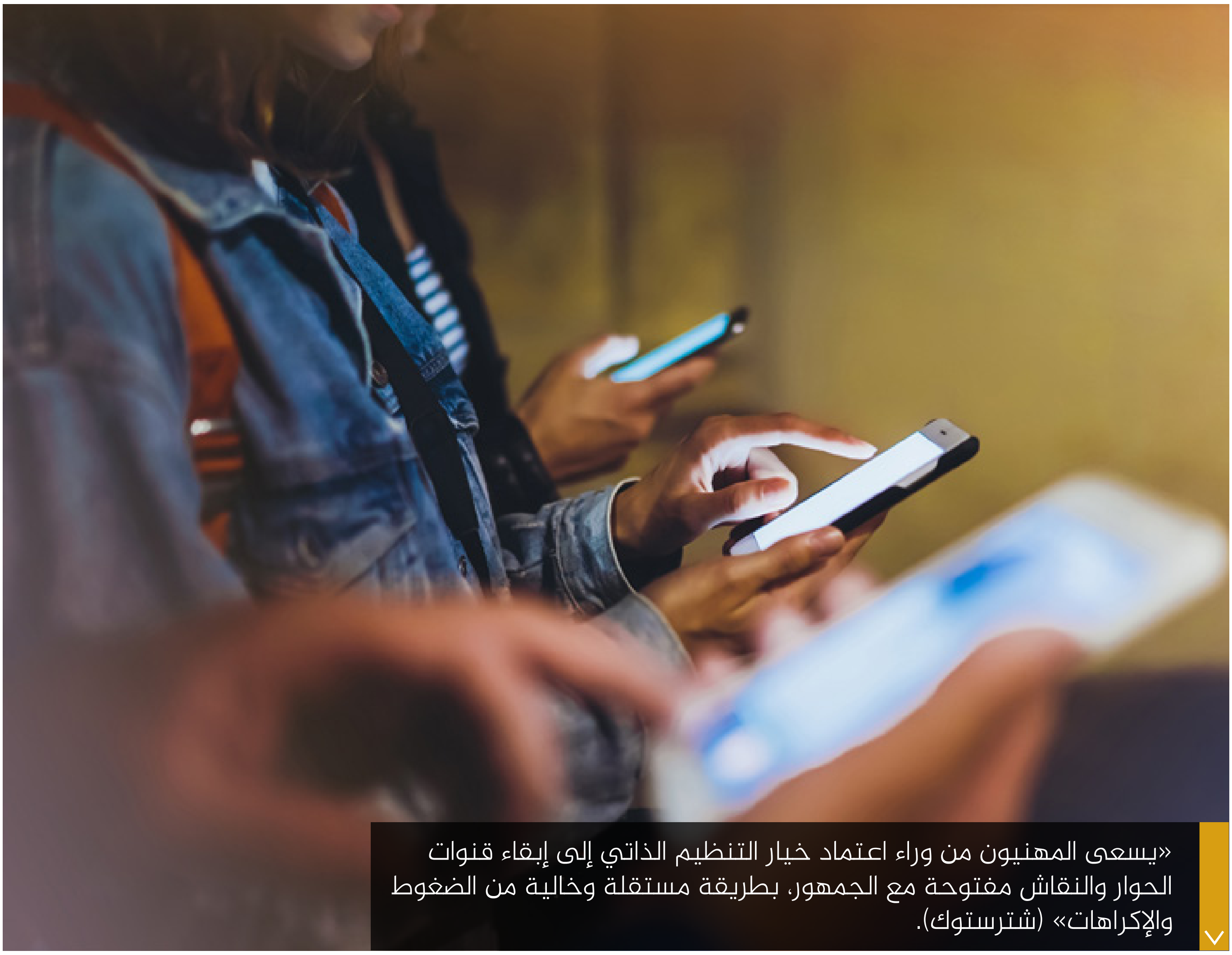

«يسعى المهنيون من وراء اعتماد خيار التنظيم الذاتي إلى إبقاء قنوات الحوار والنقاش مفتوحة مع الجمهور، بطريقة مستقلة وخالية من الضغوط والإكراهات» (شترستوك).

· التوفـر على آليـات صلـبـة وواضحـة للتظلـم والانتصـاف.
· اسـتحضار المصلحـة العامـة بشـكل دائـم واعتمـاد الشـفافية والخضـوع للمسـاءلة كنهـج في الاشـتغال.

بـروز سـلطة الجمهـور المتعاظمـة قـد تكـون عـاملا إيجابيـا في دعـم الديمقراطيـة والشـفافية والتخفيـف من تحيزات الصحفيين والمؤسسـات الإعلاميـة، لكنـه قـد يكـون أيضا عـاملا سـلبيا بالنظر إلـى التبايـن الكبيـر في انتشـار الثقافة الديمقراطية في الأوسـاط الشـعبية، وضعـف سياسـات التربيـة الإعلاميـة، وما أبانتـه بعـض الدراسات مـن تفاوت كبير بيـن «الحكـم التحريـري» الـذي تتخـذه الصحافـة وفقـا لمعاييـر قانونيـة وأخلاقيـة دقيقـة، و»الحكـم التحريـري» الـذي يتخـذه الجمهـور، حيـث يقـل حضـور معاييـر الإنصـاف والنزاهـة واحترام الحيـاة الخاصـة وتجنـب التمييـز والكراهيـة.. في بنـاء اختيـارات الجمهـور الواسـع (13).

وإلـى جانـب مسـألة المصالـح الفئويـة والاقتصاديـة الخاصـة بمالكـي وسـائل الإعلام، والتـي تعتبـر نقطـة الضعـف الأساسـية في التنظيـم الذاتـي لمهنـة الصحافـة، يوجـد الطابـع المعنـوي للعقوبـات التـي تصـدر عـن الهيئـات المهنيـة التـي تعتبـر في نظـر البعـض غيـر كافيـة ولا تـتلاءم مـع حجـم الضـرر الـذي يمكـن أن يسـببه النشـر الصحفـي.. كمـا أن جـل التجـارب الدوليـة التـي تعـرف شـكلا مـن أشـكال التنظيـم الذاتـي، لـم تعتمـد هـذا الأسـلوب بشـكل طوعـي وإرادي كليـا، بـل غالبـا مـا يتـم ذلـك تحـت وطـأة الضغـط الحكومـي والسـعي للتخفيـف مـن تدخـل السـلطات وإنزالهـا للعقوبـات على الجسـم المهنـي، وهومـا يفتـح البـاب مـن جديـد أمـام اختيـار كان إلـى وقـت قريـب يبـدو متجـاوزا، وهـو أسـلوب التنظيـم المشـترك، أي تنظيـم ذاتـي بحضـور ومشـاركة مـن السـلطات (14).

بـل إن بعـض الدراسـات خلصـت إلـى أن أسـلوب التنظـيـم الذاتـي لـم يقـدم أي دليـل على مسـاهمته في تحسـين جـودة المحتـوى الصحفـي وحمايـة حقـوق الجمهـور، وأن القضـاء يعـود تدريجيـا ليمسـك بالكامـل بملـف حمايـة حقـوق ومصالـح الجمهـور، وضمـان فعليـة قواعـد السـلوك والأخلاقيـات، وذلـك في سـياقات ديمقراطيـة مثـل الولايـات المتحـدة الامريكيـة وكنـدا (15).

لا يخلو التنظيم الذاتي من سلبيات ومؤاخذات، ذلك أنه قد يتحوّل إلى نقيض ما يراد منه، أي التأسيس لدكتاتورية جديدة تنتصر لمصالح المهنيين على حساب المصلحة العامة وحقوق الجمهور (شترستوك).

مصادر:

[1] محمد أحداد، آليات التنظيم الذاتي للصحفيين حماية للمهنة أم للسلطة؟، مجلة الصحافة، 8 سبتمبر 2021.
متاح عبر الرابط: https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article /1577

[2] Marc-François Bernier, “La montée en puissance d’un « 5e pouvoir » : les citoyens comme acteurs de la corégulation des médias ?”, Éthique publique [Online], vol. 15, n ° 1 | 2013, Online since 23 August 2013, connection on 04 March 2023. URL: http://journals.openedition.org/ethiquepublique/1077

[3] Le Guide Pratique de l’Autorégulation des Médias, Les questions et les réponses, Organisation pour la Sécurité et la Coopération en Europe, Le Représentant pour la Liberté des Médias. Vienne, 2008.

[4] Le Guide Pratique de l’Autorégulation des Médias, Les questions et les réponses, Organisation pour la Sécurité et la Coopération en Europe, Le Représentant pour la Liberté des Médias. Vienne, 2008.

[5] Le Guide Pratique de l’Autorégulation des Médias, Les questions et les réponses, Organisation pour la Sécurité et la Coopération en Europe, Le Représentant pour la Liberté des Médias. Vienne, 2008.

[6] Le Guide Pratique de l’Autorégulation des Médias, Les questions et les réponses, Organisation pour la Sécurité et la Coopération en Europe, Le Représentant pour la Liberté des Médias. Vienne, 2008.

[7] محمد أحداد، آليات التنظيم الذاتي للصحفيين حماية للمهنة أم للسلطة؟، مجلة الصحافة، 8 سبتمبر 2021.
متاح عبر الرابط: https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article/1577

[8] Le Guide Pratique de l’Autorégulation des Médias, Les questions et les réponses, Organisation pour la Sécurité et la Coopération en Europe, Le Représentant pour la Liberté des Médias. Vienne, 2008.

[9] Le Guide Pratique de l’Autorégulation des Médias, Les questions et les réponses, Organisation pour la Sécurité et la Coopération en Europe, Le Représentant pour la Liberté des Médias. Vienne, 2008.

[10] حمدي عبد المنعم – نظام الامبودسمان او المفوض البرلماني – مجلة العدالة – 1981 ص 61 .

[11] Andre
w Puddephatt, The Importance of Self-Regulation of the Media in upholding freedom of expression, UNESCO, Brasilia Office, SERIES CI Debates N.9 – February 2011.

[12] ARTICLE 19, Self-regulation and ‘hate speech’ on social media platforms, 2018.

[13] Tsafi, Yaric, Oren Meyers et Yoram Peri (2006), « What is good journalism: Comparing Israeli public and journalists’ perspectives », Journalism, vol. 7 (2), p. 152-173.

[14] Marc-François Bernier, “La montée en puissance d’un « 5e pouvoir » : les citoyens comme acteurs de la corégulation des médias ?”, Éthique publique [Online], vol. 15, n ° 1 | 2013, Online since 23 August 2013, connection on 04 March 2023. URL: http://journals.openedition.org/ethiquepublique/1077

[15] Watson, John C. (2008) Journalism Ethics by Court Decree. The Supreme Court on the Propper Practice of Journalism, New York, LFB Scholarly Publishing LLC.

معهد الجزيـرة للإعلام
ALJAZEERA MEDIA INSTITUTE